اضواء على
العصر الحجري الحديث

ثلاثة فصول مترجمة من كتاب « ماقبل التاريخ وبدايات المدنية »

تأليف

ج . هاوكس و ل . وولى

ترجمة وتعليق

الدكتور

يسري عبد الرازق الجوهري

جامعة اسيوط وجامعة بيروت العربية

اضواء على
العصر الحجري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم المترجم

أصدرت اليونسكو في عام ١٩٦٣ كتاباً تحت عنوان « ما قبل التاريخ وبدايات المدنية Pre history and the beginnings of civilization » وذلك من ضمن الكتب التي أصدرتها عن تاريخ البشرية . وقد اشترك في تحرير هذا الكتاب كل من العالمين چ. هاوكس Jacquetta Hawkes والسير لونارد وولى Sir Leonard Woolley اللذان رجعا قبل تأليفهما للكتاب إلى نخبة كبيرة من الباحثين الذين أسهم كل منهم بنصيب في إزاحة الستار عن تاريخ الانسانية بصفة عامة وعن تحليل العناصر المادية والمعنوية المتضمنة من هذا التاريخ .

وقد انقسم هذا الكتاب إلى قسمين رئيسيين تناول الأول منهما دراسة فترة ما قبل التاريخ Prehistory ، تلك الفترة التي شطرت دراستها بدورها إلى جزئين فرعيين احدهما اختص بدراسة العصر الحجري القديم والمتوسط The Palaeolithic and Mesolithic Cultures والثاني تناول دراسة العصر الحجري الحديث . وقد مهد لدراسة المرحلة الحضارية الأولى « العصر الحجري القديم » بدراسة المسرح الجغرافي الذي لعب عليه الإنسان أول فصول قصة انسانيته . وبعبارة أخرى وجه الإهتمام لدراسة التطورات المناخية والفيزيوجرافية التي طرأت على سطح الأرض في الأزمنة الجيولوجية المختلفة وعلى وجه الخصوص في خلال الزمن الرابع أو عصر البلايستوسين ، وهو العصر الجليدي الذي بدأت فيه المظاهر التضاريسية المختلفة الموجودة في العالم تأخذ شكلها النهائي ، كما أنه ايضاً الفترة التي شهدت تطور العائلة الإنسانية

Hominidae وظهور الإنسان العاقل Homo Sapiens وانتشاره فوق ربوع المعمورة .

وتطرق الجزء الأول من الكتاب لدراسة العصر الحجري القديم والاوسط الذي استغرق فترة طويلة من الزمن عاش الإنسان في خلالها مرحلة الظعن والإرتحال بعد أن ارتقى بعقله عن غيره من الحيوانات فاكتسب صفة الإنسان الصانع Homo Faber . فعرف كيف يستخدم النار ويستعملها في طهو طعامه ومن ثم فقد اضاف إلى طعامه عناصر غذائية جديدة . ذلك إلى جانب أنه تمكن – بواسطة النار – من أن يسيطر على البيئة ويحمي نفسه من الحيوانات الضارية التي تخاف النار . واستطاع ايضاً بواسطتها ان يتحمل برد الليالي القارسة ، وأن يتوغل في الأقاليم المعتدلة الباردة بل والاقاليم الباردة بعد أن استخدمها كوسيلة للتدفئة ، ومكنته من انارة دجى الليل البهيم واكتشاف اغوار الكهوف التي كان يأوي اليها .

وليس معروفاً على وجه اليقين أين ومتى تم اكتشف النار ،ولكن من المشاهد أن القبائل البدائية في الوقت الحاضر تقدح الشرر بواسطة قطعة الصوان أو عن طريق احتكاك قطعة من الخشب داخل ثقب في قمة صخرية . وربما تنوعت اساليب صنع النار اثناء العصور الحجرية غير إن اهمية هذا الاكتشاف تظهر بوضوح إذا ما تصورنا أن هذا الاكتشاف أدى فيما بعد إلى اكتشاف القوى المحركة الأخرى .

وإلى جانب ذلك اكتسب إنسان العصر الحجري القديم خبرات جديدة ومتنوعة عن طريق حرفة الصيد والجمع والالتقاط إذ أن ممارسة هذه الحرفة اقتضت في – بعض الأحيان – إلى اكتشاف الفصول الأربعة وتعاقبها لأن بعض النباتات تنمو في فصل دون آخر .

وقد تمكن أيضاً إنسان العصر الحجري القديم من تشكيل الآلات الحجرية من الصوان أو العاج ، وكان الإنسان يتم صنع هذه الآلات في بادىء الأمر

كيفما شاء غير أنها تطورت بعد ذلك فظهرت صناعة النواه Core Industry ثم صناعة الشظايا Flake Industry فالصناعة الميكروليثية والعاجية .

وارتقى الانسان تدريجياً في سلم التطور فصنع القوارب واستخدمها في النقل، وصنع الملابس وادوات الزينة. وقد سجل هذا التطور الحضاري الآثار التي خلفها الإنسان سواء كانت اثاراً منقولة أو ثابتة ، وسواء كانت تماثيل أو رسوماً تركت على جدران الكهوف لتوضح لنا الدرجة الفنية التي كان يتمتع بها اصحاب هذه الحضارة .

وهكذا اهتم القسم الأول من الكتاب بتاريخ العصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط ، وبدراسة تفكير الجماعات التي عاشت في أثناء هذه العصور ونظام المجتمع والعناصر المادية لهذه الحضارة والفن والمعتقدات الدينية .

أما القسم الثاني من الجزء الأول من كتاب « ما قبل التاريخ وبدايات المدنية » فقد أهتم بدراسة العصر الحجري الحديث Neolithic الذي هو موضوع هذا الكتاب حيث تعرض لدراسة تاريخ حضارات هذا العصر في جميع انحاء العالم ثم نظام المجتمع والزراعة وانواعها لأن من السمات الاساسية للعصر الحجري الحديث نشأة المجتمعات المستقرة المرتبطة بالأرض والزراعة وباستئناس وتربية الحيوان . وكما حدث في دراسته للعصر الحجري القديم تعرض الكتاب ايضاً لدراسة العناصر المادية التي قامت عليها حضارة العصر الحجري الحديث وذلك إلى جانب دراسة الفن والدين في هذا العصر .

وبانتهاء القسم الأول من الكتاب تبدأ دراسة فترة جديدة من تاريخ الحضارة تلك الفترة التي تتميز ببداية المدنية القائمة على استغلال المعدن . هذه المدنية صاحبت وجود فائض من الطعام مكنت بعض الجماعات المستقرة من أن تتفرغ لحرف أخرى غير الزراعة كالتجارة والفن والتعمق الفكري. ومن ثم ظهرت المجتمعات المدنية في مصر وسومر والساحل الشرقي للبحر الأبيض

المتوسط وكذلك في الهند والصين . وقد امتازت هذه المجتمعات باشياء لم تكن معروفة في العصور السالفة كرقي النظام الاجتماعي ، والتخصص الحرفي ، ووجود قانون يحترمه الجميع ، وجيش يدافع عن هذا القانون .

غير أن هذا النظام الاجتماعي المعتمد على الصناعة واستخدام المعادن قد دعمه نظام إقتصادي قوي خدم بواسطة شبكة من المواصلات ووسائل النقل . ولا عجب في ذلك إذ أن المجتمع المدني ارتقى خطوة إلى الأمام في سلم الرقي فعرف اللغة المكتوبة التي مكنته من أن يسجل خواطره وأحداث يومه ولينقلها بعد ذلك للأجيال المقبلة لتستفيد بها . ومن ثم كان له مساهمة فعلية في تطور العلوم والفنون التي انعكست بدورها على المعتقدات الدينية في مجتمعات سومر ومصر وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وعيلام والصين والهند وكريت ، كما انعكست ايضاً على فنونهم وآدابهم . وهكذا قد حلل الكتاب تفصيلياً العناصر المختلفة التي تضمنت قيام المدنيات الكبرى وأنهى بحثه بأواخر القرن ١٢ ق. م. إذ اعتبر أن عصر البرونز هو نهاية بداية المدنية .

* * *

وقد اختير العصر الحجري الحديث ليكون موضوعاً لهذا الكتاب لعدة اسباب من بينها اهتمام المترجم بدراسة هذا العصر لما له من أهمية خاصة بالنسبة لمنطقة الشرق الاوسط ، ونظراً لأهمية النتائج الاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي تمخضت عنه .

ويكفي للتدليل على ذلك تسمية هذا العصر « بالثورة الإنتاجية الأولى » لأن الانسان اصبح لأول مرة منتجاً للطعام بعد أن كان مجرد مستهلكاً له. وهذه - في حد ذاتها - خطوة خطيرة من تاريخ البشرية إذ نقلت الإنسان من حياة الانتقال والسعي وراء حيوانات الصيد أو بحثاً عن الثمار يلتقطها إلى حياة تتسم بالاستقرار والتجمع في قرى، والارتباط بالأرض وبالزراعة والري والتعاون من أجل البقاء ، أو نقلته إلى حياة بدوية منظمة يرعى فيها حيواناً معيناً اختاره من المملكة الحيوانية وروضه واستأنسه .

ولكي ندرك أهمية هذا التطور نذكر أن اكتشاف الزراعة جعل هناك شيئاً من تقسيم العمل في المجتمع لأن هـذا المجتمع المرتبط بقطعـة أرض يزرعها كان مجرد عدد قليل من الافراد كافياً لتغذية المجتمع كله ، ولذلك اشتغل الجزء الباقي بالفنون والفلسفة ، وهكذا بدأت مظاهر المدنية في الظهور .

وقد تمكن الإنسان في كافة اجزاء منطقة الشرق الأوسط ولا سيما في مصر والعراق وسوريا وفلسطين والهضبة الايرانية وآسيا الصغرى من أن يؤدي دور الطليعة في عملية الاستقرار الأول للانسان الذي مكنه من أن يتحول من جامع للطعام إلى منتج له في حوالي الالف السادس . ق. م. وما تبع ذلك من نشأة القرى المستقرة والتي أدت فيما بعد إلى ظهور القوميات التي كانت ضرورة فرضتها النظم الاجتماعية الجديدة القائمة على التعاون وتقسيم الأرض وصد غائلة الفيضان والتوزيع العادل للمياه . ولقد كان هذا التوزيع إلى جانب التربة الخصبة هو المتحكم الأول في انتشار طريقة الحياة الجديدة للعصر الحجري الحديث .

ولم يقتصر التطور الذي حدث في العصر الحجري الحديث على التحول من حياة الارتحال والانتقال إلى الاستقرار فحسب بل شمل أيضاً تغيراً جذرياً في الآلات والاشياء التي ظهرت أو تطورت في هذا العصر لتلائم طبيعة المجتمع الجديد المرتبط بفلاحة الأرض وحصد الزرع وشق الترع وبناء الجسور والاستقرار .

فإنسان العصر الحجري القديم تمكن من أن يتلاءم مع بيئته فيتخذ من الكهوف أو المظلات الصخرية أو ما يشبه ذلك مأوى له ، على حين استطاع إنسان العصر الحجري الحديث من تشييد أول المحلات العمرانية التي عرفها التاريخ كضرورة اقتضتها ظروف الحياة المستقرة المرتبطة بالأرض والزراعة ونمو الرابطة العائلية والتعاون بين المجموعات البشرية المتكتلة في بقع وفيرة المياه . وليس معنى ذلك إن ظهور الاقتصاد الزراعي الجديد قد قضى كلية على سكنى الكهوف ، التي ما زالت حتى الآن موجودة في بعض المناطق التي لم يصل إليها بعد قبس

نور المدنية . وكل ما حدث انه مع ازدياد عدد السكان وشدة الحاجة للاستقرار إلى جانب الأرض المنزرعة — حيث لا يوجد هناك أي مأوى طبيعي — أن بدأ إنسان العصر الحجري الحديث يضع اللبنات الأولى في صرح الفن المعماري .

وعلى الرغم من أن محلات العصر الحجري الحديث قد اختلفت في صفاتها من منطقة لاخرى تبعاً لأختلاف الظروف المحلية هنا وهناك إلا أن من السمات المميزة للمحلات العمرانية التي تكونت ابان « الثورة الانتاجية الأولى » انها لم تهتم جميعاً — وبصفة عامة بمسألة الدفاع ، إذ أن السلام كان من الصفات الهامة لحضارة العصر الحجري الحديث.فحقيقةظهرفي هذه الحضارة بعض الحفرالتي استخدمت للحماية من الحيوانات المفترسة أو بغرض القبض على الماشية الضالة إلا أنه لم توجد في معظم جهات العالم أي شيء يمكن أن نطلق عليه اسم عمل حربي ، اللهم إلا في جريكو « اريحة » التي احيطت بسور حجري ما زالت آثاره باقية على ارتفاع ١٢ قدماً وزودت بقلعة ومجموعة من خزانات المياه .

على أي حال فقد تمكن فلاحو العصر الحجري الحديث من وضع بذور التقدمات الحضارية التي حققها الإنسان والتي غيرت وجه الأرض تغييراً جذرياً ففي حوالي الالف الرابعة ق. م. في مناطق نشأة الزراعة ، وفي حوالي الألف الثانية ق. م. في المناطق التي انتشرت اليها الزراعة شرقاً وغرباً ، تمكن الإنسان من أن يغير المظهر الطبيعي Physical Landscape على طول المناطق التي وصل اليها في آسيا وإفريقية إلى مظهر بشري Cultural Landscape آخر يظهر فيه قدراته وتأثيره علي البيئة . فانشأ في بعض المناطق عدداً من القرى المتجمعة المبنية من الطوب اللبن ، وفي مناطق أخرى شبه أكواخ من الحصير ، وفي ثالثة مجموعة من المنازل المستطيلة الخشبية ذات السقوف العالية . وقد نشأت هذه المحلات في مناطق متعددة منها الخصب والصحراوي ، والغابي والمستنقع ، والسهل والوادي . وفي كل هذه المناطق كانت الأكواخ والمنازل محاطة بارض خضراء مزروعة ومراعي وفيرة جيدة ، وفي كل مكان كان هناك زيادة

كبيرة في عدد النساء والرجال والاطفال ، وفي نفس الوقت كانت هناك روح تعاون وسلطة وقوة تحفظ النظام وتدعم الحياة المستقرة وتجعلها ممكنة .

هذا ويعتبر العصر الحجري الحديث من أهم العصور الحضارية التي مرت بها الانسانية، ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر أن البشرية في تاريخهاالطويل لم تضف — إلى حد ما — إلى نباتات وحيوانات « الثورة الإنتاجية الأولى » في العصر الحجري الحديث أي نبات أو حيوان مستأنس جديد . وليس هذا فحسب بل بدأ الإنسان يؤمن حياته بضرورة تخزين انتاجه ليستخدمه عند الحاجة في المستقبل ، ومن ثم لجأ إلى صناعة الاواني الفخارية وكافة الادوات الأخرى المتصلة بحياته الزراعية .

فكما استطاع صيادو العصر الحجري القديم أن يشكلوا المصابيح الحجرية فقد استخدمت الحجارة ايضاً في صناعة بعض الاواني في المراحل الأولى للعصر الحجري الحديث ، كما يظهر بوضوح في الأواني الحجرية التي صنعها السكان الأول في جرمو وجريكو والذين لم يتوصلوا لمعرفة صناعة الأواني الفخاريةفي المراحل الاولى من حضاراتهم .

ومن المعروف لدى الباحثين لحضارات ما قبل التاريخ أن صناعة الفخار من المميزات الرئيسية للعصر الحجري الحديث . فالحياة الزراعية التي جعلت الاستقرار ضرورة من ضرورياتها مكنت المرأة من أن تشكل الصلصالوتحرقه لتصنع الأواني اللازمة لحياتها المنزلية والتي استخدمتها في اعداد الطعام أو في حفظ المياه .

وإلى جانب صناعة الآنية الفخارية ظهرت ايضاً صناعة السلال Basketry وصناعة الغزل والنسيج في أثناء العصر الحجري الحديث . وعلى الرغم من صعوبة وضع حداً نظرياً بين صناعة السلال والحصر من ناحيةوالنساجه من ناحية اخرى وذلك قبل أن تستخدم الانوال إلا أنه في المراحل الاول للعصر الحجري

الحديث (١) كان من من الممكن لسكان العالم القديم أن يمارسوا صناعة النسيج بنوعيها بينما كان لدى سكان البحيرات السويسرية نوعاً من التخصص ومن ثم فمن المحتمل انهم تخصصوا في صناعة واحدة من صناعتي النسيج .

وقد كان الكتان هو أكثر المواد الخام المستعملة في النسيج في بداية العصر الحجري الحديث رغم أن اعداده يتطلب مهارة وتمرين إذ أن عمليات ضربه و تنظيفه أشد تعقيداً من اعداد الصوف أو القطن . هذا ولا يوجد بقايا صناعة صوفية في المراحل الأولى من العصر الحجري الحديث إذ يبدو ان من عيوب الصوف عجزه على أن يعمر طويلاً في هذه الفترة ذلك بالاضافة إلى أن المصريين نظروا إلى الصوف على أنه مادة غير نظيفة لصناعة الملابس . على أي حال لا يمكن ان نتصور أن رعاة الأغنام في المناطق الباردة قد فشلوا في صناعته حتى ولو كانت أغنامهم لا تحمل فراء ثقيلة . أما عن القطن فقد استخدم في الصناعات الهندية منذ الأيام الأولى لقيام حضارة مهانجودارو Mohenjo-daro كما كان معروفاً لدى فلاحي بيرو .

ولعل من المظاهر الاساسية الأخرى التي ميزت العصر الحجري الحديث وجود تنوع كبير في المواد الغذائية التي زادت بعد أن عرفت الزراعة واستأنس الحيوان ، وتنوعت طرق طهي الطعام . فحقيقة تمكن صيادو العصر الحجري القديم من جمع الجذور والفاكهة والحبوب في بعض المناطق الملائمة غير أن الكميات التي كان يجمعها كانت صغيرة وفصلية ومن ثم لا يمكن أن تقارن بفائض الطعام في العصر الحجري الحديث حيث كان لدى كل اسرة مخزن خاص للحبوب ، ووفرة من اللحوم بل ايضاً كان لدى البعض . في بعض الأحيان – اشجاراً مثمرة ونباتات غذائية . ففي العالم القديم تمكنت الزراعة المختلطة القائمة إلى جانب الصيد البري والبحري من أن تمد إنسان العصر الحجري

---

(١) لعل الشيء الوحيد الذي يمكن بواسطته أن نفرق بين صناعة السلال والحصر وصناعة المنسوجات هو أن المنسوجات يستخدم في صنعها خيوط ملفوفة بينما يستخدم من صناعة السلال والحصر الياف نباتية لا تنسج بل تستخدم على حالتها الطبيعية .

الحديث بوفرة من الرزق مكنته من ان يعيش حياة مستقرة . أما في العالم الجديد حيث نقصت الحيوانات المستأنسة أو حيث كانت اهميتها أقل من العالم القديم استمد مزارعو العصر الحجري الحديث البروتينات اللازمة لهم من زراعة البقول . ولسوء الحظ لا نعرف — حتى الآن — عما إذا كانت قطعان الماشية والأغنام قد استغل البانها أم لا ، ولكن من المحتمل أن الماعز هي أول الحيوانات التي أستخدمت لحلب ألبانها .

وأهم الآلات التي استخدمتها امرأة العصر الحجري الحديث في الطهو الموقد ورحى طحن الحبوب والافران ، كما استخدمت ايضاً قدر « تحت النار » لإنضاج اللحوم والانواع المختلفة من الحبوب . وإلى جانب ذلك فقد استخدم سكان العصر الحجري الحديث انواع مختلفة من التوابل ولذا يمكن القول أن مزارع العصر الحجري الحديث قد خطى الخطوة الأولى نحو تأسيس حديقة التوابل . أما الملح فلا بد أنه وضع في بعض المخازن ، على حين استخدمت الافران لخبز العيش وتحمير اللحوم ، وهنا يمكن التمييز لأول مرة في التاريخ بين اللحوم المشوية والمحمرة .

أما بالنسبة للمشروبات فلا يوجد دليل واضح يشير إلى أنواع المشروبات التي وجدت في مجتمعات العصر الحجري الحديث ، غير أن معظم المجتمعات البشرية في المرحلة البدائية من التطور الحضاري تستخدم بعض المشروبات الكحولية أو أدوية أخرى ومن ثم لا نستطيع أن نعتبر فلاح العصر الحجري الحديث يشذ عن هذه الجماعات إذ لا بد وأن وجود مورد دائم ومنتظم للحبوب دفع الفلاح إلى عمل البيرة (١) .

ونظراً لأهمية الفأس الثقيلة المصقولة في أقتصاد العصر الحجري الحديث فقد وجهت الجهود لانتاجها وتوزيعها في تلك الفترة . ولعل من ابرز تلك

---

(١) من الثابت أن هذا المشروب قد صنع في مصر على نطاق واسع في عهد ما قبل الاسرات Pre-dynastic

المجهودات استغلال المناجم والمحاجر للحصول على المواد الخام اللازمة والتي كانت تتكون في العادة من الصخور النارية الصلبة أو الصوان . وقد تمكن إنسان العصر الحجري الحديث من الحصول على الصوان عن طريق عمل حفر عميقة في الصخور الطباشيرية إلى أن يصل إلى طبقات النواة الصوانية التي امتازت بأنها كبيرة وسهلة التشكيل عن الصوان السطحي (١) . وقد أقتصر التعدين في بادىء الأمر على عمل حفر صغيرة في المنجم . ولكن تطور الأمر بعد ذلك وتمكن المعدنون من أن يحفروا ممرات على طول الطبقات المستغلة ويتركوا اعمدة من الطباشير كدعائم لسقف المنجم ، على أي حال فالدلائل تشير على أن تعدين الصوان قد وصل في بعض المناطق في أثناء العصر الحجري الحديث لدرجة الصناعات المتخصصة . ومن ثم فمن الصعب أن نتصور أن العمال الذين اشتغلوا في التعدين لم يكونوا متخصصين لبعض الوقت أو كل الوقت ، كما أنه ليس من المستحيل أن نتصور افراد المجتمعات الزراعية وهم يتوجهون إلى المناجم في فصول الراحة لاحضار حاجاتهم السنوية من المواد الخـــام .

أما عن أدوات الزينة فلم يحدث تغيير جذري في الأدوات التي أقبل الرجال والنساء على ارتداءها في أثناء العصر الحجري الحديث . فقد ظلت العقود والاساور المحببة لهم هي نفس تلك التي ظهرت في الحضارة الناطوفية دون أي تغير في تصميمها . وكل ما حدث هو زيادة كبيرة في حبات الخرز والمواد التي تصنع منها .

وفي الواقع – من الصعب أن نستطرد في سرد التفاصيل عن ادوات الزينة التي ظهرت في عصر الزراعة،ولكن من الممكن أن نميز بين امرين اساسيين أولهما أن ادوات الزينة الشخصية وكذلك المواد التي صنعت منها في العصر العصر الحجري الحديث كانت هي العناصر الاساسية لتجارة المسافات الطويلة

---

(١) وجدت مناجم الحجر الصوانيفيصقلية والبرتغال وفرنسا وبلجيكا وانجلترا والدانمارك والسويد وبولندة وبرهيميا .

إذ أن سكان العصر الحجري الحديث قد حاولوا بطريقة أو اخرى الحصول على المعادن الثمينة اللازمة لصناعة حليهم ومن ثم جمع الذهب والنحاس والعاج والعقيق وغيره من المواد الجذابة ذات الالوان البراقة في مخازن بالعالم القديم قبل نهاية العصر الحجري الحديث .

أما الأمر الثاني وهو أنه في أثناء حضارة العصر الحجري الحديث حدثت زيادة سريعة بين سكان العالم القديم في امتلاك ادوات الزينة والكماليات وهذا في حد ذاته اشارة إلى تطورهم نحو عصر البرونز .

وعلى أي حال فقد اقتضى تأمين الحياة الاقتصادية لإنسان العصر الحجري الحديث التطلع إلى القوى الطبيعية التي تتحكم في إنتاج محصوله الزراعي فاتجه إلى تجسيم هذه القوى في صورة جديدة من الآلهة كألهة الأمومة التي كانت رمزاً لفكرة الخصوبة والإنتاج في شمال شرق العراق .

ولقد لاحظ الإنسان نباتاته فرأى كيف تنبت البذرة إلى شجرة وكيف تستوي على عودها ثم ما تلبث أن تذبل وتموت ، ولكن تعاود الكرة فتنبعث فيها الحياة مرة أخرى . ففكر مراراً في هذه الظاهرة وتوصل إلى نظرية الخلود واستمرار حياته في العالم الآخر بعد الموت الدنيوي . تلك النظرية التي توصل اليها الإنسان المصري القديم حينما لاحظ كيف يغمر نهر النيل الجزر المتناثرة في مجراه إبان الفيضان وكيف تخلق من جديد عقب انحسار الماء عنها .

وهكذا كان العصر الحجري الحديث فترة متميزة حضارية من النواحي الاقتصادية والمادية والاجتماعية والفكرية ، الأمر الذي دفعني إلى محاولة تقديم هذا العصر الحضاري الذي يصور الحياة التي كانت عليها مجتمعات العصر الحجري الحديث في العالمين القديم والجديد .

* * *

ويضم هذا الكتاب ثلاثة فصول تهتم بالجغرافيا التاريخية للعصر الحجري الحديث . الفصل الأول يتناول دراسة تاريخ حضارات العصر الحجري الحديث وفيه وجه الاهتمام إلى التوزيع الجغرافي لهذه الحضارات . وخصائص كل منها ومدى انتشارها وتأثرها بالحضارات المجاورة وذلك على المستوى الاقليمي والعالمي .

أما الفصل الثاني فيتعرض لطبيعة مجتمعات العصر الحجري الحديث . والأساس الاقتصادي الذي قامت عليه هذه المجتمعات ، ونظام تقسيم العمل بها .

على حين يحتوي الفصل الثالث على دراسة مستفيضة للزراعة وأنواع النباتات التي وجدت في أثناء « الثورة الأنتاجية الأولى » ومواطن زراعتها وانتشارها — كما يدرس إيضاً التوزيع الجغرافي للحيوانات التي استؤنست وصاحبت الانسان في استقراره الأول بجوار ينابيع الماء وموارده الدائمة .

هذا وإذ يقدم المترجم هذه الفصول إلى القراء يرجو أن يكون قد بذل جهداً متواضعاً في القاء قبس من نور الحقيقة على العصر الحجري الحديث .

والله ولي التوفيق

يسري الجوهري

بيروت في ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٦٧

العصر الحجري الحديث

حضـــارات العصر الحجري

الفترة	مليون ق. م.	الجزر البريطانية	أيبريا وفرنسا والبحيرات السويسرية	شمال ايطاليا	جنوب ايطاليا وصقلية والجزر الغربية	أقليم البلطيق وسهل أوروبا الشمالي
الفترة الشبه باردة Sub Boreal	٢	الهيجنز الاوائل FirstHegnes	التطـ	ـور نحو حـ	ـضارات	استخدام
	٣	رينو–كلاكتون ميجالثيه سكان طواحين التلال	ميجالثيه حضارة عصر حجري حديث غربية		ديانسا سير ادلتو	عصر حجري حديث متأخر قبور الممرات (*)
أتلانتيك Atlantic	٤		ميشلسبورج الميران (اسبـ	لاجوزا Lagozza ـانيا) شيوزا		روسين حضارات دانوب [illegible] الأولى
	٥		فخار مضغوط في جنوب وشرق اسبانيا	فخار مضغوط	مولفيتا ستينتينلو (صقـ فخار مضغوط -	ارتبولي ـلية
	٦		العـ	ـصر		
الفترة الباردة Boreal	٧				الحجـ	ـري
	٨					

(*) تداخل مع حضارة العصر الحجري الحديث الاوروبية .

الحديث في العالم القديم

البلقان ووادي الدانوب وجنوب روسيا	بحر إيجة والساحل الفينيقي	مصر	غرب آسيا	الهند	الشرق الأقصى
المـ	ـعـ	ـدن			الساحل حضارة العصر (شمال
قبل يامنو تريبولي	لاريسا Dimini ديميني			حضارات السند	الشرقي لوانج الحجري الحديث ووسط) يانج
لينجيل فينيسيا	كنوسوس سيسكلو Sesklo		قبيل الكتابة الوركاء	ما قبل حضارات السند	شان الجنوبية شار
دانوب ١ كوروس ستاركيفو	خيروكيتيا	البداري الفيوم ب الفيوم	العبيد حلف		
	اوتزاكي	أ ديرتاسا	سامرا نينوي- سيالك هاكيلار- حسونة ميرسين		
			كهف البلت جرمو جريكو		
المتوسـ	ـط		الناطوفية		

الفصل الأول

تاريخ حضارات العصر الحجرى الحديث

ظل الإنسان لفترة تقترب من مليون عام يعيش على الصيد غير أنه في خلال ٤٠.٠٠٠ سنة الأخيرة (١) تطورت بالتأكيد قدراته العقلية وتخيلاته ومهاراته الأمر الذي جعله يرقى إلى مستوى الإنسانية الكاملة . وقد ظل كغيره من الحيوانات التي تطورت وعاشت على سطح الأرض في هذه الفترة يعتمد في حياته اعتماداً كلياً على ما تقدمه الطبيعة إليه من مأوى وملبس ومأكل . ومثل هذه المؤونات قليلة ونادرة . ولم تكن مستمرة رغم أنها استطاعت أن تسد رمق الإنسان . وقد كانت الممتلكات محدودة . وكان

(١) إذا ما تتبعنا تطور العائلة الانسانية Hominidae نلاحظ أن القردة الجنوبية «الاستراوشيكس» قد ظلت سائدة بمفردها في العالم حتى منذ ٥٠٠,٠٠٠ سنة مضت حينما بدأ إنسان بكين المنتصب القامة Homo erectus يشاركها العيش على المعمورة . ومنذ ٢٥٠,٠٠٠ سنة مضت انقرضت القردة الجنوبية تماماً وبدأ يعمر إلى جانب إنسان بكين أنواع مختلفة من الإنسان Homo تتدرج من طلائع إنسان نياندرتال إلى إنسان روديسيا إلى أنواع أقرب للإنسان العاقل : واستمر الحال كذلك إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة حين انقرض إنسان بكين تماماً وبقيت السيادة للإنسان . ويبدو أن جمجمة شتانهايم وسوانسكوب تمثلان حلقة وسطى في التطور بين إنسان بكين والإنسان العاقل مع ملاحظة أن بعض هذه الأنواع قد اختلطت مع بعضها البعض الآخر قد عاش في عزلة إلى أن تطور نوع نياندرتال المعروف والذي انقرض بدوره منذ ٣٠,٠٠٠ سنة مضت ليترك السيادة للإنسان العاقل . المترجم

عدد الأطفال أيضاً محدوداً . ولم يحدث تغير جوهري في المجتمع إلا حينما تمكن الإنسان من أن يسيطر على البيئة ويستقر بها . فظهرت بعض الممتلكات الكبيرة وشيدت المباني لتحتوي على بعض المرافق الهامة . وقد تمكن أيضاً نتيجة لهذا الاستقرار من أن يعيش الأطفال في كنف أبائهم . ومن ثم استطاعوا أن يرثوا عنهم حرفهم وبالتالي أخذت أعدادهم في الزيادة .

وقد كان تشيد القرى الثابتة هو إحدى الظاهرات المميزة في المرحلة الأولى للاقتصاد الزراعي الجديد . ففكرة زراعة بعض المحاصيل عن طريق البذر وتزبية بعض الحيوانات الصغيرة التي أخذت من القطعان البرية ربما حدثت في أماكن عديدة وفي أزمنة مختلفة خلال التاريخ . ولكن من المؤكد أن الثورة الزراعية كانت ذات نشأة مستقلة في العالم الجديد . أما في شرق آسيا فقد بذلت محاولات مضنية أو أدخلت تغيرات جذرية على الزراعة لكي تتلاءم مع مناخ هذه الجهات . ورغم ذلك فيبدو — في الوقت الحاضر — أن الاكتشافات التي ساعدت الزراعة على أن تنشىء مجتمعات القرى الثابتة قد حدثت مرة واحدة في منطقة محدودة في العالم القديم . حيث انتشرت من هنالك فكرة الزراعة وبذر الحبوب وتربية الماشية إلى أجزاء أخرى من العالم عن طريق الانتشار الحضاري وتحركات الشعوب . والغرض من دراسة هذا الفصل هو محاولة تتبع الظهور الأول لهذا النظام الاقتصادي الجديد ، ومعرفة طرق انتشاره ، ثم مناقشة النشأة المستقلة للمجتمعات الزراعية في العالم الجديد .

وهذا الانتشار الجديد المصاحب لتغير أساسي في اقتصاد المجتمع يطلق عليه اسم ثورة العصر الحجري الجديث . هذا العصر الذي استغرق منذ ظهوره فترة طويلة من الزمن . قد بدأ في موطنه الأول منذ ما يقرب من ثمانية أو تسعة آلاف سنة مضت . واستغرقت بعد ذلك للوصول إلى غرب أوروبا من ناحية وإلى الصين من ناحية أخرى فترة تتراوح ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠

سنة . وفي الحقيقة – كما هو معروف لنا جيداً . أن مدن عصر البرونز قد ظهرت إلى الوجود قبل أن يتمكن مزارعو غرب أوروبا الأوائل من ممارسة حرفة الزراعة أو رعى قطعان الماشية والأغنام .

وهكذا ظلت فائدة العصر الحجري الحديث فترة طويلة من الزمن حتى أصبح مفهوماً جيداً أنه لا يمثل فترة زمنية محدودة تقع بين تاريخين محدودين . وإنما هو عبارة عن مرحلة اقتصادية تبين نهاية حياة الصيد وبداية اقتصاد المعدن . حيث مورست فيها الزراعة وانتشرت على شكل موجات ذات تحركات بطيئة إلى أجزاء كثيرة من أوروبا وآسيا وإفريقية .

وقد اعتمد اقتصاد العصر الحجري الحديث بصفة عامة على الزراعة المختلطة . إذ أن أقدم محلة عمرانية معروفة لنا كانت تعتمد على كل من استئناس الحيوان وزراعة الحبوب . ولا نعرف ما إذا كانت تربية الحيوان قبل ذلك أو الزراعة بمفردها تكون أساساً كاملا للأستقرار الزراعي . وكالرعي المتنقل على الرغم أن من الممكن أن ننظر بسهولة إلى آثاره الضئيلة إلا أنه يمثل نمطاً من الحياة على درجة كبيرة من التخصص وأنه ربما لم يمارس إلا في فترة متأخرة نسبياً . وبالتأكيد لم تنشأ هذه الحرفة في مناطق الاستبس الأوراسية إلا بعد مرور عدة آلاف من السنين على قيام أول محلة للزراعة المختلطة . على أي حال سوف نناقش حرفة الرعي في سياق الحديث . غير أنه لا يمكن في هذا الصدد أن نضيفها إلى نشأة وانتشار بداية حضارة العصر الحجري الحديث .

وإذا كانت ممارسة الزراعة والأستقرار في أكواخ هي السمات الأولى المميزة لقيام الثورة الكاملة للعصر الحجري الحديث فإن هناك آثاراً مادية أخرى صاحبت هذا العصر ولذلك لا بد من التعرض لذكرها في التعريف العام بحضارة العصر الحجري الحديث . ومن بين هذه الآثار المادية الفأس

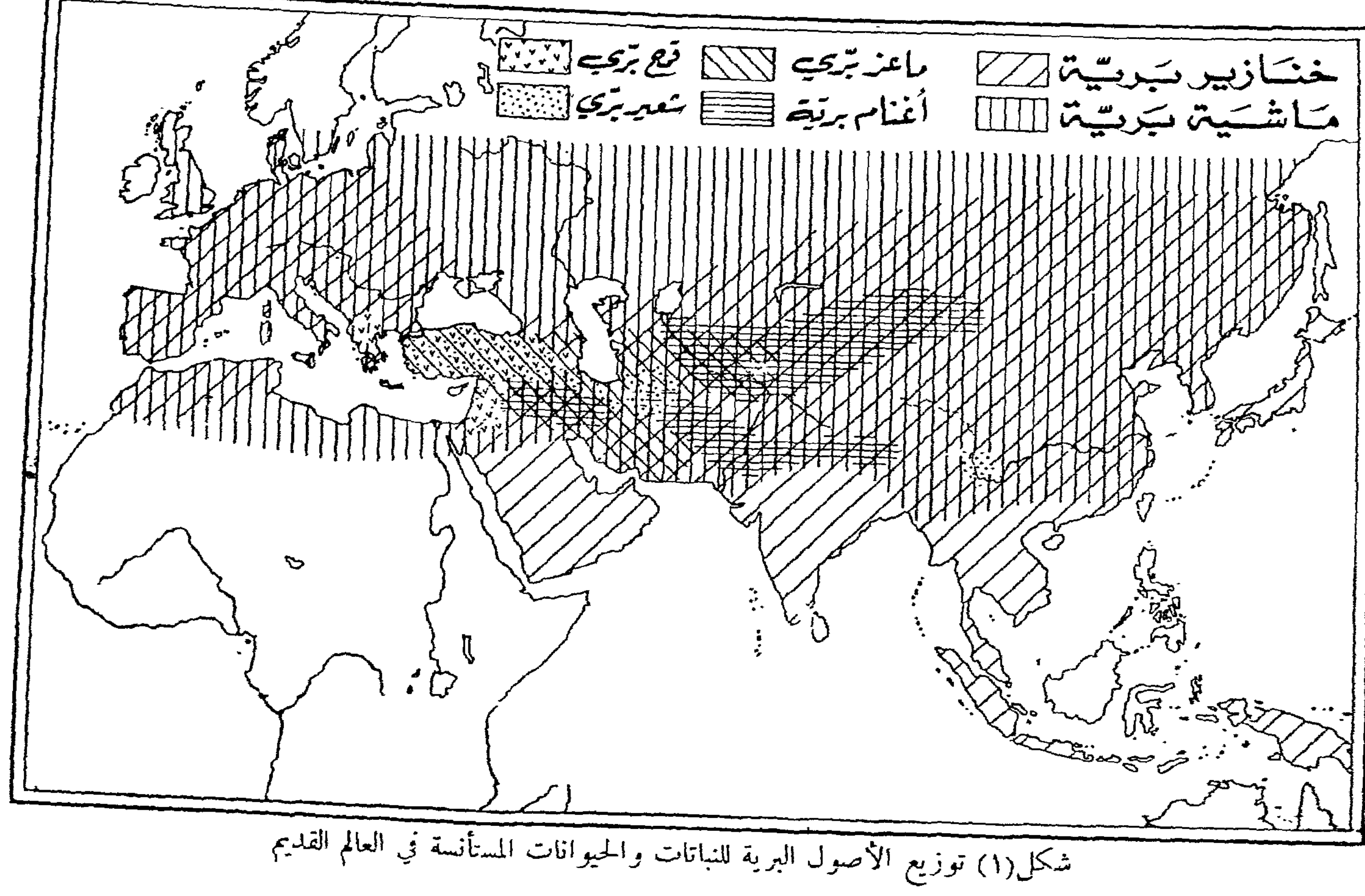
أو المنجل المستقيم الذي كان يشبه أو قريب الشبه من تلك النماذج الموجودة في الحضارة الناطوفية . وأيضاً صناعة الفخار والنسيج التي سرعان ما أصبحت من أهم سمات حضارة العصر الحجري الحديث . وإن كانت هذه الصناعات — كما سنرى فيما بعد — أشياء ثانوية لحقت بالمقادير الاساسية للحياة الزراعية .

وقد سبق أن ذكرنا صعوبة تحديد — بشيء من الدقة — الزمان والمكان الذي نشأ فيه الاقتصاد الزراعي . وليس هذا بعجب إذ أن بداية الأشياء كثيراً ما تكون طبيعتها صعبة بسبب ضآلتها وعدم معرفتها بدقة . ذلك بالإضافة إلى أن هذه النشأة المعينة لا يمكن تحديدها تماماً . ففكرة بذر الحب ورعي الحيوان كان من السهل انتشارها . كما كان تقبلها أسرع من تقبل التغيرات الطارئة على صناعة الآلات أو غيرها من مظاهر الحضارة المادية . فوفرة الأرض ووجود المناخ المناسب دفع شعوباً مختلفة ذات عادات متباينة إلى أن تتقبل ثورة العصر الحجري الحديث ومن ثم لاءمت بالتدريج حضاراتها لهذه الثورة .

على أي حال يمكن الجزم بأنه لم يعد هناك أدنى شك في أن المراكز الأولى للزراعة ورعي الحيوان كانت في جنوب غرب آسيا على المسرح الأوراسي الذي شهد مظاهر النشاط الحضاري للإنسان منذ بداية العصر الحجري القديم الأعلى « خريطة ١ » . هذا وتوجد بعض الادعاءات المنادية بأن شمال إفريقية بل وأيضا الحبشة هي الموطن الأول للزراعة (١) . غير أن الاكتشافات الأثرية وتتبع أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات تشير إلى أن جنوب غرب آسيا هو الوطن الأول . فيبدو أن القمح البري من نوع Emmer والشعير كانا من أول الحبوب التي زرعت إذ كانت تنتشر

---

(١) نادي البروفسير ساور Sauer أن الوطن الأول للزراعة هي الأقاليم التي توجد على أطراف الغابات المدارية أو المناطق المرتفعة في الأقاليم الحارة ، وقد اقترح أن جنوب شرق آسيا هي المنطقة التي يتوفر بها كل المقومات اللازمة لنشأة الزراعة . المترجم



شكل (١) توزيع الأصول البرية للنباتات والحيوانات المستأنسة في العالم القديم

في منطقة واسعة من فلسطين وأيران وأفغانستان . كما يبدو أيضاً أن أغنام الموفلون Mouflon والاوريال Urial الآسيريه كانت أصولها موجودة في القطعان المستأنسة الأولى هناك بينما لا يوجد في إفريقية حيوانات برية .

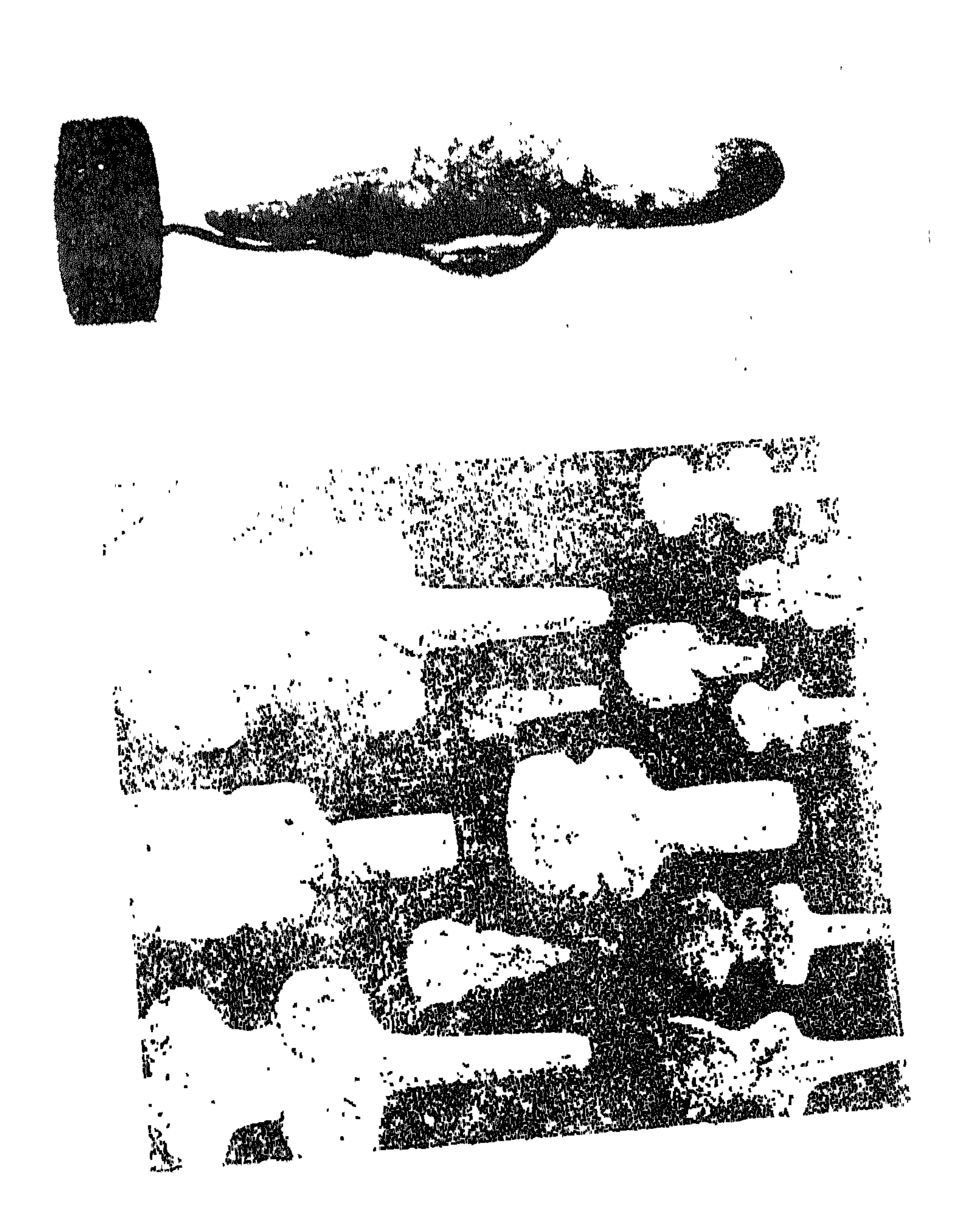
وقد ضيق نطاق البحث عن المراكز الأولى للزراعة المستقرة في جنوب غرب آسيا . وهي بدون شك لا يمكن أن تكون في المناطق السهلة والأودية النهرية الكبرى لدجلة والفرات حيث بلغت الزراعة هنا فيما بعد عظم أوجها . وهناك مدرسة من الباحثين تعتنق فكرة البحث عن الوطن الأول للزراعة في منطقة حوض قزوين (١) . وعلى النقيض من هذه المدرسة تؤمن مدرسة أخرى أن مرتفعات الأناضول وهضبة إيران وحوض قزوين . وبلوخستان ووسط شبه جزيرة العرب كانت كلها مناطق هامشية لمراكز الزراعة الرئيسية . وتبعاً لذلك لا بد في بحثنا عن هذه المراكز أن نتجه إلى الأراضي المرتفعة على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط إبتداء من فلسطين وغرب الأردن وداخل الأراضي اللبنانية والسورية إلى جنوب تركيا . وشمال سوريا والعراق وجنوب إيران وحتى زاجورس . وأول شريط من هذه الأرض يشتمل على حوض نهري الأردن والعاصي ، والثاني يجري فيه نهرا دجلة والفرات وروافدهما .

---

(١) فيما يختص بأين نشأت الزراعة فهذا سؤال لم يصل فيه الباحثون لإجابة قاطعة إذ يتنازع هذا الموضوع اكثر من نظرية . فهناك نظرية تنادي بأن الزراعة نشأت في مكان معين ثم انتشرت منه إلى بقية اجزاء العالم الأخرى عن طريق الانتشار الحضاري بواسطة الهجرة والغزو والتقليد .

ونظرية اخرى تقول أن العقل البشري يتمتع بامكانيات كثيرة فحيث تظهر البيئة الملائمة تظهر الحضارة الملائمة ، فمن الجائز أن تكون الزراعة قد نشأت في اماكن مختلفة وفي أزمنة مختلفة .

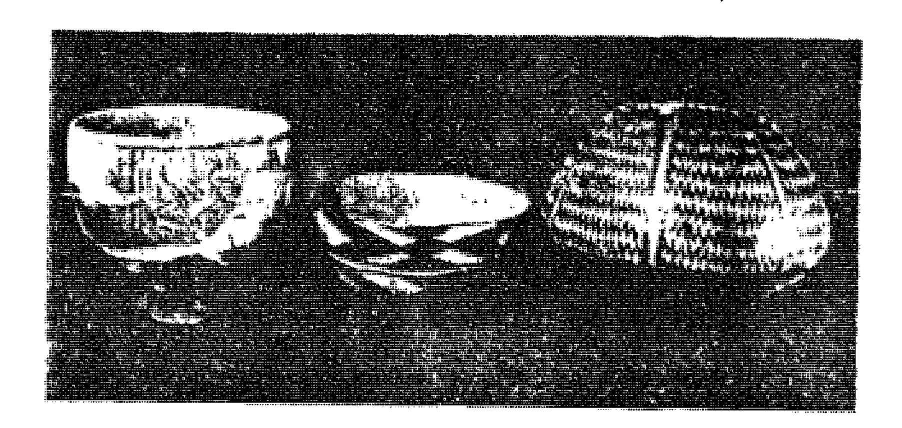
وعلى هذا فمجال الجدل بين النظريتين كبير غير أن الطريقة التي اتبعها الاركولوجيون في تتبع الوطن الأصلي للزراعة قامت على اساس البحث عن الاثار الخاصة بنشأة الزراعة في مواطن الحضارة القديمة . المترجم .



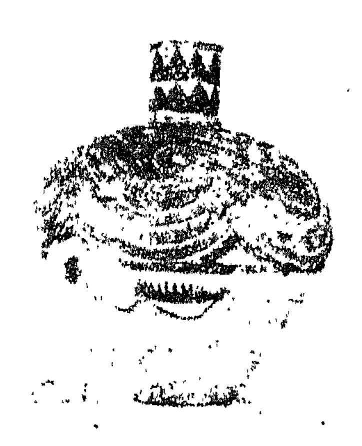
شكل (٣) امثلة من الفخار الآسيوي الملون

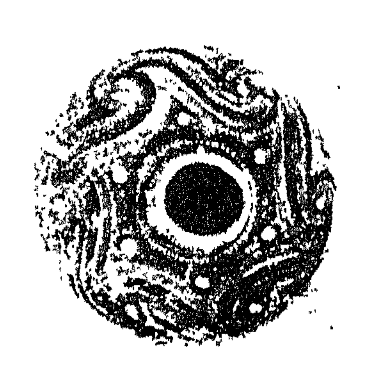






أ ــ فخار سيالك





ب ــ فخار يانج شاو بالصين

وبدون شك تدخل فلسطين أكثر من غيرها ضمن النطاق الأثري لهذه الثورة . فقد شوهد أن الحضارة الناطوفية تحمل طابعاً حضارياً أحسن من غيرها حيث اعتمد سكانها أساساً في معيشتهم على الصيد وإن بدأوا يجمعون الحبوب أو البذور . فنلاحظ في تل جريكو الشهير (اريحة) « واحة تقع تقريباً على بعد ١٠٠٠ قدم تحت مستوى سطح وادي الأردن » أن حضارته قد نمت إلى حضارة كاملة للعصر الحجري الحديث . ويبدو أن أول حدث لتعمير هذا الموقع التاريخي الهام هو إقامة ضريح . ربما تخليداً من قبيلة صيادي الحضارة الناطوفية السفلي لحياة أصحاب النبع . وتبع ذلك أن استقرت نفس الجماعات نهائياً أو في فترات فصلية منتظمة في أكواخ واهية من نوع تلك الأكواخ التي تنتمي إلى الاستقرار النصف رعوي . هذه المحلات التي يمكن أن نطلق عليها اسم محلات قبيل العصر الحجري الحديث Proto-Neolithic نمت بدون انقطاع حضاري إلى مجتمع كامل للعصر الحجري الحديث الذي يعتبر بمنازله وحصونه أول مدينة بمعنى الكلمة . أما عن الأدوات التي وجدت في جريكو فما زالت تظهر بها سمات الحضارة الناطوفية . وعن طريق التحليل الكربوني ١٤ أرجع عمر الضريح إلى عام ٧٨٠٠ ق.م. . وبطريق غير مباشر أعطيت الألف السابعة ق.م. على أقل تقدير بداية للوجه الكامل للعصر الحجري الحديث .

وهكذا ليس هناك أدنى شك في أن جريكو قد شهدت في خلال الألف الثامنة ق.م. تطوراً محلياً من مرحلة صيد العصر الحجري المتوسط إلى اقتصاد العصر الحجري الحديث غير أنه ليس من المعقول أن تكون هذه المنطقة هي البقعة الوحيدة التي شهدت كل هذه التغيرات الهامة . فهناك موقع آخر لإحدى القرى التي ساهمت ببعض المعلومات الخاصة بتطور الاقتصاد الزراعي . وهي قرية قلعة جرمو Qalat Jermo التي تقع في منطقة دجلة على سفح تلال الأكراد . فمن الناحية الاقتصادية يبدو أنها تشبه هذه السلسلة الأولى من الأكواخ التي بنيت وسكنها جماعات كانت قريبة جداً من بداية مرحلة إنتاج

الطعام . وقد أعطى التحليل الكربوني ١٤ بعض التناقض في تاريخ حضارة جرمو . ففي بادىء الأمر أرجع عمر هذه الحضارة إلى عام ٤٧٥٠ ق.م. . ولكن في فترة حديثة نسبياً دفع بهذا التاريخ إلى الوراء ليصل إلى عام ٤٧٥٠ ق.م. . ولكن في فترة حديثة نسبياً دفع بهذا التاريخ إلى الوراء ليصل إلى عام ٦٥٠٠ ق.م. ومهما كان الاختلاف فيوجد هنا بعض الأدوات المصنوعة من الصوان أو الزجاج الطبيعي تثبت أنها انحدرت من الحضارة الناطوفية . هذا وقد فشل الباحثون في إيجاد أي صلة قرابة بين هذه الحضارات وبين الحضارة الجرافيتية المتأخرة Late Gravetcian في كهف زارزي Zarzi ، وحضارة بالكورا Palegawra المجاورة . كما أنهم لم يجدوا أيضاً أي صلة قرابة بالحضارة المعروفة من كريم شاهير Karim Shahir أو شانديار Shandiar والتي كانت تنمو نمواً موازياً للحضارة الناطوفية .

وإلى جانب ذلك هناك موقعان آخران على قدر كبير من الأهمية في تتبع المنشأ الأول للزراعة . هذان الموقعان هما كهف البات Belt Cave وهوتو Hotu اللذان يقعان جنباً إلى جنب على الشواطىء الجنوبية لبحر قزوين . ففي الكهف الأول ــ الذي كان أساساً موقعاً لحضارة العصر الحجري المتوسط ــ عثر به على حضارة عصر حجري حديث تحتوي على بعض بقايا أقدم حيوانات مستأنسة ربما ترجع إلى بداية الألف السادسة ق.م. غير أننا نلاحظ أنه ليس هناك ثمة استمرار واضح بين الحضارتين فلا يمكن القول أن حضارة العصر الحجري الحديث تطورت عن حضارة العصر الحجري المتوسط .

ولعل أفضل الطرق لإعطاء صورة حية عن بداية الحياة الزراعية هو دراسة بعض المواقع المعينة التي ذكرت سابقاً وذلك قبل أن نتطرق بصفة عامة لوصف المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا حيث نجد ــ بين الأمثلة الأولى المعروفة لنا ــ أنماطاً مختلفة من المواقع . فإذا ما تقدمنا من سكان الكهف الذين كانوا جماعات غير مستقرة استقراراً كاملا

إلى القرى الدائمة ثم إلى المحلات الكبيرة المسوّرة بالأحجار والتي تستحق أن نطلق عليها اسم مدينة . كنا في الواقع نتتبع الطريق الاقتصادي لثورة العصر الحجري الحديث . كما أن المنطقة المحصورة بين كهف البلت وقرية جرمو وجريكو هي المنطقة التي يحتمل أن تكون قد نشأت بها الزراعة .

هذه المواقع تمثل نواحي مختلفة من محلات ما قبل الصناعة الفخارية بالعصر الحجري الحديث ومن المعروف لدينا حالياً أنه كان لها انتشار واسع في جنوب غرب آسيا . وربما أظهرت الأبحاث مستقبلا أنها كانت تمتد لمناطق بعيدة أخرى في أوروبا . ويبدو أن أول الجماعات التي قامت برعاية الحيوان في كهف البلت لم يكن لديهم أواني فخارية . بينما بدأت تظهر بعض قطع من الأواني في مرحلة متأخرة في جرمو على حين أزيل من جريكو في موقعين متتاليين حوالي ٣م بقايا العصر الحجري الحديث قبل أن تظهر الأواني. وقد ظهرت هذه المرحلة التمهيدية بوضوح في أواخر العصر الحديث المعروف باسم Chalcolithic (١) في جنوب غرب آسيا وذلك في منتصف الألف السادسة ق.م. حيث امتازت بفن رفيع في الصناعات الفخارية .
أما عن الأدلة الخاصة بانتشار محلات ما قبل الصناعات الفخارية بالعصر الحجري الحديث نحو الغرب فمازالت ناقصة رغم أنه يوجد عدد من المواقع في تسالي Thessaly وفي خيروكيتيا Khirokitia في جنوب قبرص تشير إلى وجود مجتمع زراعي هناك في منتصف الألف السادسة ق.م. وعلى الرغم من أن محاولات قليلة بذلت في بادىء الأمر لصناعة القدر إلا إن هذه الحرفة قد ازدهرت بسرعة بدليل وجود هذه الكثرة من الأواني الحجرية الدقيقة الصنع .

ويبدو أن صيادي السمك الذين عاشوا في العصر الحجري المتوسط في

---

(١) هذه هي بداية استخدام النحاس حيث وجد في هذا العصر النحاس والحجارة [illegible] . وبالتدريج بدأ يتوسع الإنسان في استعمال المعادن وكلما توسع في استعمال المعادن [illegible] في استعمال الحجارة حتى طغى المعدن على الحجارة .

أواخر العصر الجليدي أي منذ ١١.٠٠٠ سنة كانوا هم أول من عمر كهف البلت . وقد تبعهم بعد ذلك حضارة ثانية تنتمي أيضاً للعصر الحجري المتوسط وترجع إلى الألف السابعة ق.م. . وعقب ذلك قدمت مجموعة ثالثة تمكن أفرادها — أو لم يتمكنوا — من زراعة الحبوب ولكن من المؤكد أنهم كانوا يمتلكون أغناماً وماعزاً مستأنسة . والتحليل الكربوني ١٤ يعطي هذه الطبقة تاريخ ٥٨٤٠ ق. م. باحتمال خطأ ٣٠٠ سنة . وفي خلال النصف الأخير من الألف السادسة ق.م. عاش في الكهف جماعات احترفت بمعنى الكلمة الزراعة المختلطة إذ كان لديهم مناجل لحصد الحبوب . كما أنهم صنعوا الفخار وإن كان هشا فقيراً . وذلك بالإضافة إلى أنهم ربوا الأغنام والماعز أولا ثم الخنازير والأبقار بعد ذلك .

أما عن سكان كهف هوتو Hotu المجاور فيبدو أنهم عاشوا بهذه المحلة في أواخر العصر الحجري الحديث وأنهم استمروا بها إلى ما بعد نهاية كهف البلت . هذا وتحتوي بقايا الكهف الأخير على فخار مدهون . دقيق من نوع صلب ليس له مثيل في أي منطقة أخرى .

أما عن سكان جرمو فقد عاشوا بصورة أخرى — في قرى صغيرة ذات منازل مستطيلة متعددة الحجرات مصنوعة من الطين . وفي بعض الأحيان كانت تقام منازلهم على أساس من الحجارة والأرضية من سعف النخيل . وكانوا يزودون منازلهم بأفران للخبز وأحواض للغسيل . ورغم أنهم لم يتوصلوا لمعرفة حرق الفخار إلا أن السكان الأوائل شكلوا ونحتوا أواني ممتازة من الصخور الناعمة ذات ألوان جميلة . وقد استخدموا أيضاً بعض الأحجار في صناعة بعض الحلي الخاصة كالعقود والأساور . وكان لديهم كل الأدوات المميزة للعصر الحجري الحديث كالفأس الحجرية المصقولة وما شابهها كالمخاوز . ذلك إلى جانب الآلات الزراعة الأخرى كالمنجل وكطواحين الحبوب الصغيرة .

وقد استورد سكان جرمو الزجاج الطبيعي لصناعة بعض الآلات كما استخدموا أيضاً الصوان غير النقي . وكان جزء كبير من آلاتهم ميكروليثية الأمر الذي يشير إلى رابطة وراثية قوية بحضارة العصر الحجري المتوسط .
وقد كانت أهم حاصلات هؤلاء المزارعين القمح بنوعيه Einkorn Emmer

والشعير . غير أن النوع الأول من القمح كان أكثر بدائية من أي نوع آخر من القمح المزروع والمعروف لنا إذ كانت سنابله تختلف كثيراً من حيث الحجم والتكوين الأمر الذي يؤخذ كدليل على أن استنباطاً أو اختياراً زراعياً ضئيلا كان يكمن وراء ذلك .

أما بالنسبة لحيواناتهم . فمعظم البقايا الحيوانية تنتمي إلى أنواع مستأنسة من الأغنام والثيران والخنازير والكلاب غير أننا لا نستطيع أن نجزم أن جميع هذه الحيوانات قد استأنست استئناساً كاملا . أما بالنسبة لمعتقدات سكان جرمو فقد نظروا للمرآة على أنها رمز لآلهة الخصب فأقاموا لها تماثيلا من الصلصال ؛ كما صنعوا أيضاً نماذج صلصالية صغيرة للحيوانات التي ربما استخدموها في أغراض سحرية أو دينية .

هذا وقد ذكر في سياق الكلام بعض الأحداث الأولى التي شهدتها جركو إلى جانب نبع الماء الدائم إذ يمكننا أن نتصور جماعات من الصيادين وجامعي القوت المتجولين البدائيين وهم يترددون على ضريحهم ربما فقط في فترة معينة من السنة . وما تبع ذلك من نمو محلة عمرانية مستقرة أو نصف مستقرة مكونة من أكواخ مصنوعة من الطين والقش . وبينما ظل أصحابها يصنعون أدواتهم وأسلحتهم الحجرية بنفس الطريقة التي كان يصنع بها أسلافهم أدواتهم إلا أنهم ربما بدأوا في هذه الفترة ممارسة زراعة الحبوب على نطاق بسيط . . . وقد اتخذت نفس هذه الجماعات بعد ذلك خطوة تقدمية نحو الأمام وذلك منذ ٩٠٠٠ سنة مضت . فعلى طول سلسلة من مخلفات الأكواخ التي هدمت واعيد بناؤها قامت أول محلة عمرانية اشتملت على منازل دائرية

كبيرة الحجم ، وكانت تشبه مجمعاً لخلية نحل كبيرة ، ومحاطة بسور مبنى وقلعة مستديرة . وقد أطلق بحق على هذه المحلة الأولى — التي تمثل العصر الحجري الحديث — بكامل صفاته في جريكو — اسم مدينة .

هذا ولم تكتشف أدلة كافية عن هذه المدينة القديمة جداً حتى نتمكن من سرد تفاصيل كثيرة عن حياة السكان . فمازالت آلاتهم تشير إلى صلتهم بتقاليد الحضارة الناطوفية السفلى ، إذ كان لديهم رحى حجرية كبيرة لطحن الدقيق عن طريق الاحتكاك . ذلك بالإضافة إلى أنهم لم يتعلموا فن صناعة الأواني الفخارية . وفي نفس الوقت صنعوا من الطوب المحروق تحت أشعة الشمس منازلهم ذات الشكل المستطيل المميز .

أما بالنسبة للمحلة الثانية لما قبل الصناعة الفخارية بالعصر الحجري الحديث في جريكو فقد عرف عنها الشيء الكثير . إذ يبدو أن السكان القدماء قد حل محلهم نهائياً شعب جديد ذو حضارة متميزة وإن كان له صلة بطريق غير مباشر بالحضارة السابقة . هذه هي الحضارة الطاحونية Tahunian culture التي ما زالت تعرف على نطاق ضيق حتى الآن .

ونظراً لأن أصحاب هذه الحضارة كانوا بعيدين عن جريكو فقد مارسوا الحياة النصف رعوية وحافظوا على تقاليد العصر الحجري المتوسط الخاصة بالصيد وجمع الطعام والعيش في الكهوف ، بينما كانوا في نفس الوقت يشتغلون بالزراعة المتنقلة ويحتفظون بقطعان الماعز . هذا وقد انحدرت حضارتهم من الحضارة الناطوفية السفلى ولكن في اتجاه مخالف لاتجاه أصحاب حضارة جريكو . أما كيف تمكن الطاحونيون من الحصول على واحة نضرة وممارسة حياةمدنية مستقرة فما زالت حتى الآن مشكلة تاريخية — ليس لها حل . ولا بد أن حياتهم كانت بالتأكيد على النقيض من أقاربهم سكان الكهوف ، ومثل هذا التناقض ذلك الموجود بين سكان مدن فلسطين

الحديثة وحياة البدوي الذي يعيش في خيام مصنوعة من شعر الماعز بالقرب من ضواحي المدينة .

أما عن تخطيط المحاة الثانية لما قبل الصناعة الفخارية بالعصر الحجري الحديث في مدينة جريكو فقد كانت أكثر تقدماً من المحاة الأولى . إذ كانت المنازل مستطيلة ذات فناء محكم جيد البناء . وقد احتوى أحد المنازل على صومعة صغيرة وضعت فوق قاعدة بنجوة بها قطعة من الحجارة . بينما عثر على بناء آخر كبير ذي شكل مستطيل يحتوي على حوض حجري ويعتقد أنه كان معبداً عاماً . وقد قدر أن تاريخ جريكو يرجع إلى أواخر الألف السابعة ق.م. وأن هذه المحاة بمنازلها الموجودة خلف الأسوار لا بد وأنها كانت تحتوي على الأقل على ٣٠٠٠ شخص .

وقد استخدم أهل جريكو كمزارعي جرمو الأواني والأطباق المصنوعة من الاحجار والمأخوذة من صخور محلية ناعمة يمكنها أن تعطي وجهاً مصقولا جميلا للأواني . ومن المحتمل جداً أنه وجد لديهم بعض الأواني المصنوعة من الجلود والأخشاب . أما بالنسبة لآلاتهم فقد استعملوا الصوان أساساً في صناعتها إلى جانب الزجاج الطبيعي الذي استخدم أحياناً . هذا ويعتبر العدد الكبير من المقاشط والمناجل المسننة الأطراف بدقة والرحى التي عثر عليها هنا دليل على أهمية الزراعة . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يعثر على عصي معقوفة وإن وجد في نفس الوقت عدد من الحجارة المثقوبة التي توحي بأنعصيا ثبتت بها واستخدمت في الحفر بدلا من العصي المعقوفة . وربما كانت الواحة مركزاً لحدائق وبساتين تروى ولكن حتى الآن ليس لدينا أي دليل على زراعة الخضروات والفاكهة في هذا التاريخ المبكر . وقد اكتشف قليل من عظام الحيوانات المستأنسة كما وجد إلى جوار المعبد عدد من التماثيل الصلصالية للماعز والأغنام والماشية والخنازير التي توضح أنواع الأغنام المستخدمة هنا . ونسبة كبيرة من العظام التي عثر عليها كانت خاصة

بالوعل وبعض الأنواع البرية الأخرى . وكل هذه البقايا إلى جانب رؤوس السهام كلها أدلة كافية لتبرهن على أنه رغم وجود الطابع المدني هنا إلا أن الصيد كان لا يزال يمثل مورداً اقتصادياً ثانوياً هاماً في جريكو .

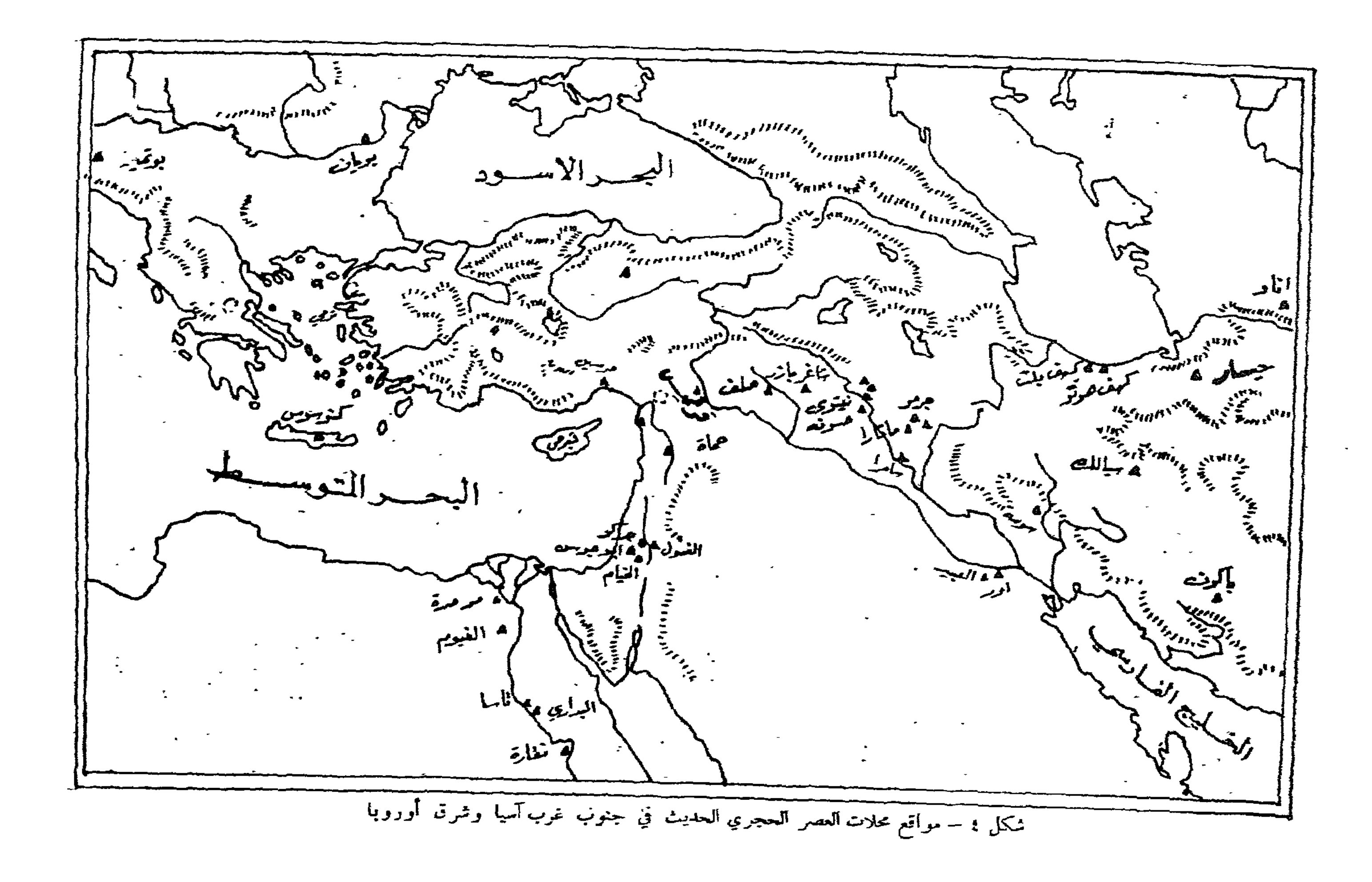
ويوحي المعبد — المفترض وجوده بتماثيله الصلصالية الصغيرة — أن نوعا من عبادة الحيوان كان موجوداً هناك وذلك بالمقارنة بجرمو ، إذ عثر على تمثالين لإمراتين من ألهة الخصوبة في فناء المعبد . وربما كان أهم شيء بالنسبة للمعتقدات الدينية في المرحلة الأولى لجريكو هي الجماجم المزينة . هذه الجماجم إنسانية أعتقد دائماً أنها بدون الفك السفلي ، وكانت الأجزاء الرخوة بها تصنع من الصلصال كما كانت الأصداف توضع في الجفون لتشبه العين إلى حد كبير . هذا وعثر في المحلة العمرانية على هياكل بشرية عديدة بدون الجمجمة التي ازيلت كلها فيما عدا الفك السفلي الذي ترك في موضعه . ويقترح البعض أنه لم يقتل أصحاب هذه الهياكل بل ماتوا ميته طبيعية . هذا الاقتراح يؤيده في الواقع العناية الفائقة التي بذلت في تشكيل الوجه وفي دفن الجثث تحت أرضية المنازل . وربما يستطيع المرء افتراض أن سكان جريكو كانوا حريصين على إبقاء أرواح أسلافهم معهم .

أما لماذا كانت جريكو متقدمة لدرجة غير عادية ؟ ولماذا عاش بها حوالي ٣٠٠٠ شخص في منازل مريحة في نفس الوقت الذي كان فيه معاصروهم يعيشون في أكواخ صغيرة أو كهوف ؟ فربما الاجابة على هذه الأسئلة تتضمن حقيقة أن جريكو نمت إلى جانب واحة هامة إذ أن مورد المياه الدائم لم يشجع فحسب الزراعة الجيدة للحبوب والبساتين بل أيضاً الإشراف على المياه كان يقتضي تنظيم حياة اجتماعية والشعور بالمجتمع ، كما هو الحال في صيد الحيوانات الذي اقتضى تعاونا بين الأفراد وجمع شمل عدد أكثر من الصيادين والذي أدى إلى اتساع نطاق الالتزامات الاجتماعية خارج حدود العائلة أو القبيلة في خلال العصر الحجري القديم ، كل ذلك يشبه تماماً مسائل ضبط

الري التي تتطلب إحساساً جديداً بالتعاون واحترام القانون بين الجماعات المستقرة .

ولا بد من ذكر كلمة عن نهاية العصر الحجري الحديث في جريكو بعد أن استطاع مواطنوها أن يستخدموا النخار . والفخار في بادىء الأمر كان لينا نوعاً ما .وكان لونه بنياً محلى في بعض الأحيان بخطوط وردية . وفي نفس الوقت بدأ السكان في تخزين الحبوب في حفر حددت بالطوب اللبن الأمر الذي يذكرنا بهؤلاء الذين عاشوا في تل حسونة . وقد عثر على نموذج من المباني مكون من طابقين يعتقد أنه كان مخزناً للغلال أو مخبأ . وهذا المبنى يعطي فكرة عامة عن الفن المعماري المعاصر . وعلى أي حال فالشيء الحقيقي المميز لهذه المحلة المعروفة لدى الاركولوجيين باسم جريكو ۹ هو أنها كانت « سبيل » أو فندق محلى . وقد عثر بالضريح على ثلاثة تماثيل صنعت من الطين والعيون من الأصداف ، وتمثل هذه التماثيل رجلا طويل اللحية وإمرأة وطفلا ، وهو أعظم ثالوث عبد منذ ثلاثة آلاف عام مضت .

ومما هو جدير بالذكر أن كهف البلت وقرية جرمو ومحلة جريكو الكبيرة قد فُصلت كل واحدة منها عن الأخرى وذلك لأنها تمثل بعض الخطوات الأولى نحو ثورة العصر الحجري الحديث . ففي كهف البلت وجدت أدلة مبكرة لاستئناس الحيوان ، أما جريكو فهي أقدم قرية مستقرة كشف عنها حتى الآن ذلك بالاضافة إلى انها تعتبر مثلا مدهشاً لكيف استطاعت الحياة الاجتماعية المنظمة أن تحقق بسرعة وعلى نطاق كبير الاقتصاد الزراعي الذي نشأ . ومن الصعب تتبع هذه الدراسة باعطاء وصف عام لحضارة سكان هذه المناطق في خلال المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث ، إذ يبدو أن لكل موطن له طابعه الحضاري الخاص ، حيث أن كل جماعة لاءمت نفسها لظروف الحياة حينما أخذت الزراعة وتربية الحيوان وبدأت في الاستقرار في قرى



شكل ٤ - مواقع محلات العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا وشرق أوروبا

دائمة (خريطة ٢) . وعلى أي حال أمكن تتبع قليل من المواقع ذات حضارات تحمل بعض تأثيرات خارجة عن نطاق محيطها المباشر . ومن ضمن هذه المواقع محلة تل حسونة في اشور على الضفة الغربية لنهر دجلة . والتي نشأت بالتأكيد بعد الاستقرار الأول في جرمو . وهي أقدم محلة هنا لها صفات مشتركة كثيرة مع المحلات الأولى في نينوى Nineveh وماتارا Matarrah . بل يبدو أنها استقبلت بعض المؤثرات الآتية من أقصى الغرب من سهل العمق Amouq . وقد احتل سكان هذه القرية موقعاً ممتازاً عند مفترق مجريان للماء الدائم . ومنذ البداية استطاعوا أن ينتجوا نقوشاً جميلة وفخاراً محدوداً Incised wares . وقد كانت النقوش دائماً على هيئة خطوط مستقيمة سوداء .

أما عن منازلهم فقد كانت مستديرة أو مستطيلة . بنى فيها فرن . وحفرت بها حفرة وأحيطت بالطوب لوضع الخزين « أول أشكال التخزين كانت عبارة عن قدر كبير وضعت تحت الأرض » . هذه المخازن وتلك الرحى البدائية والمقاشط العريضة والمقاشط المعقوفة الحجرية التي تظهر في تل الحسونة تشير إلى وجود عدد كبير من الزراع . بينما عظام الماشية والأغنام والماعز تبين أنواع القطعان المستأنسة .

وقد كان الفلاحون في نفس الوقت يصطادون بعض الحيوانات البرية كالغزال والأرنب « الأنجوراه » بواسطة النبال والسهام . والقرية هنا كغيرها من قرى فلاحي العصر الحجري الحديث الموجودة في جنوب وغرب آسيا وفي بريطانيا يوجد بها تماثيل من الصلصال لآلهة الخصوبة التي يبدو أنها كانت لها قداسة دينية هنا أيضاً . وباختصار تظهر حضارة تل حسونة طريقة حياة أكثر تقدماً قليلا من جرمو إذ حدث تغير في صناعة الفخار والعصي المعقوفة . واستخدمت طرق أفضل لتخزين الحبوب . كما أن أنواع القمح قد تحسنت عن طريق اختيار أفضل الحبوب التي كانت تبذر عشوائياً في جرمو .

وفي المحلات المتأخرة التي شيدت بالطوب بالقرب من قمة تل حسونة حيث توجد منازل مكونة من غرف متعددة وذات أبواب خشبية — نلاحظ أنه كان لدى أصحاب هـذه المحلات نقوش وأواني فخارية خاصة . فكان الفخار مطلياً ومخططاً ومرسوماً بدقة متناهية ، وقد أخذت هذه الرسوم عن رسوم السلال أو صور بعض الحيوانات . هذا الفخار الجميل يعرف بأواني سامرا Samarra وقد انتشر بصورة أكبر في تل حسونة . وقد عثر على هذا الفخار في نينوى Nineveh وماتارا وشغر بازار Chagar Bazar ، بينما المكان الذي سمي على اسمه كان جبانة تقع فوق السهول الفيضية لنهر دجلة على مسافة قصيرة إلى الجنوب من تل حسونة حيث وضعت بعض أنواع الفخار الدقيقة مع طقوس الدفن . . . وعلى الرغم من أنه استعمل في منطقة واسعة ابتداء من ساكجي جوزي Sakje Geuze غرب الفرات إلى ما وراء نهر دجلة في أشور إلا أنه من الصعب تعريفها على أنها حضارة حقيقية لسامرا إذ أنها كانت ذات طابع محلي .

أما بالنسبة للتواريخ التي في أثنائها عرفت الزراعة وازدهرت حول أعالي نهري دجلة والفرات ، فلا بد وأن المحلات العمرانية الأولى التي شيدت في تل حسونة قامت في منتصف الألف السادسة بينما ظهرت أواني سامرا الجميلة بعد ذلك بقليل .

والشيء المؤكد تماماً هو أن الفترة السامرية قد تداخلت مع الحضارة المعروفة باسم حضارة حلف Halafian التي تعتبر حضارة كاملة للعصر الحجري الحديث . ويقع تل حلف Halaf إلى الغرب من المواقع التي تعرضنا لدراستها فيما سبق بالقرب من منابع نهر الخابور . ولا بد من الاعتراف بأن هذه الحضارة تتميز أساساً بفخارها الذي امتد أثره من مقدمات تلال ايران شرق نهر دجلة وعبر الأراضي السهلة في أعالي نهري دجلة والفرات وروافدهم إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب تركيا وسوريا .

وإلى جانب تل حسونة وحلف يظهر الأثر الحلفاوي في بعض التلال الكبيرة الموجودة في هذا الاقليم ومن بينها نينوى وقرقميش Carchemish وارباشيه Arpachiyah . وعلى الرغم من أن الصيد بالنبال قد ظل على ما هو عليه من أهمية سابقة إلا أن الزراعة المختلطة قد عرفت تماماً الآن حيث زرعت أنواع متعددة من قمح Emmer والشعير ، وربيت سلالات متعددة من الماشية والأغنام والخنازير . وأبتداء من تل حسونة الأخير يبدو أنه لم يطرأ أي تغير جديد على الفن المعماري ، غير أن بعض المباني الدائرية ذات سقوف قبابية منخفضة قد ظهرت حديثاً وبالتأكيد كانت تستخدم في إقامة الشعائر الدينية . وفي الأرباشيه حيث كانت المحلة الحلفاوية غنية نلاحظ أنها عمرت طويلا ؛ إذ تعطينا الشوارع المتقاطعة الموجودة بها فكرة عن طبيعة شكل المدينة التي كانت تعيش بين المنازل المتلاصقة .

وقد كان أصحاب حضارة حلف عمالا مهرة في تشكيل الحجارة فاستطاعوا أن يستخدموا الزجاج الطبيعي في صناعة الأواني والخرز . وتمكنوا من تطوير صناعة القدر إلى اختراع الغزل والنسيج في العصر الحجري الحديث . ومما هو جدير بالذكر أنه كان لديهم بعض الحلقات النحاسية الصغيرة ولكن يظهر أن مصدر هذا النحاس كان محلياً ولا يتضمن معرفة المعدن . وقد ظل كل من الصوان غير النقي Chert والزجاج الطبيعي هما مادتا صناعة الآلات التي لم يطرأ على أشكالها أي تغير ملحوظ عن نوع الفؤوس الحجرية المصقولة أو مخارز تل حسونة والمناجل والسكاكين المصنوعة من الزجاج الطبيعي والعصي المعقوفة الخشبية .

وأصحاب حضارة حلف كانوا ايضاً صناع مهرة للفخار إذ استخدموا في ذلك افراناً ترفع درجة الحرارة بها إلى ١٢٠٠° ف . وقد كانت أوانيهم مصنوعة باليد ولكنها كانت رفيعة للغاية* وفي العادة كانت ذات لون سمني ووجه مخطط . وقد اتسمت أشكالها بالذوق والجمال ، بينما النقوش صنعت

لكي تعطى « في القطع الفنية » لوناً فضياً ممزوجاً باللون الأحمر والأسود والأبيض ، وكان السطح اللامع للفخار يرسم عليه بعض الأشكال الهندسية ، أو الحصان أو الذئب أو رؤوس بعض الحيوانات الأخرى . هذا ويعتقد البعض أن هذه الحضارة الحجرية الحديثة الكاملة النمو نشأت في أشور حيث نجد نمواً للحضارة ، ولا سيما في صناعة الفخار .

وإذا ما اتجهنا إلى أقصى الحدود الشرقية للموطن الأول المحتمل لنشأة الزراعة سنجد إيران . ففي زاجورس توجد بعض المواقع على مقدمات التلال مثل Tang-i-Pabda وباكون Bakun التي ربما تمثل محلة أولية لقبل عصر حضارة العبيد Pré-Ubaid . ومثل هذه المواقع لا يعرف عنها في الوقت الحاضر إلا القليل ومن ثم لا يمكن الحكم على أهميتها . أما في داخل الهضبة الإيرانية بالقرب من كاسان Kasan فقد نمت محلة هامة إلى جانب واحة سيالك . وتبدو القرية الأولى هنا معاصرة لحسونة والسامرا . بينما يظهر في الثانية تأثير حضارة حلف . وفي بداية نشأة هذه المحلة ربما كان الفلاحون يعشيون في أكواخ من سعف النخيل ولكن سرعان ما سكنوا المنازل الطينية . وقد مارسوا الزراعة المختلطة مع تربية الماشية وسلالتين من الأغنام . أما عن النباتات التي زرعوها فلم تحدد حتى الآن ولكن بالتأكيد كانت لها أهمية كبرى في اقتصادهم . وقد كانت الحقول تعد بالعصى المعقوفة ، كما كان يحصد المحصول بالمناجل التي صنعت أيديها من العظام وأسنانها من الصوان . في بعض الأحيان نحتت على أيدي هذه المناجل بعض الصور الطبيعية الأمر الذي جعلها تشبه لدرجة كبيرة تلك المناجل الموجودة في الحضارة الناطوفية والتي تقع بعيداً عنهم . ومما هو جدير بالذكر أن أحد الرسوم التي عثر عليها على أحد المناجل تلقى ضوءاً على الفلاحين الذين استعملوها ، فقد كان فلاحا صغيراً قوياً يرتدي قميصاً طويلا ثبت من الخلف بما يشبه شريطاً ربط حول الرأس ليستقبل العرق .

وقد ظل الصيد هنا – كما هو الحال في معظم القرى القريبة والموجوده في تلك الفترة – يكون جزءاً ضرورياً من الحياة . فكان الرجال يخرجون ومعهم النبال والكور الصلصالية لمتابعة الغزال وغيره من الفرائس . وسيالك حضارة حقيقية للعصر الحجري الحديث استخدم فيها قليل من الدبابيس والمخارز النحاسية التي تشبه مثيلتها في تل حلف والتي ربما صنعت من مادة محليه . ويبدو أن الصلصال قد استخدم بعد صحنه لتجميل الأحياء . أما الموتى فقد دفنوا تحت المنازل وكانوا يوضعون في المقابر على هيئة القرفصاء ويدهنون باللون الأحمر .

ويظهر تأثير الحضارة الحلفاوية في سيالك إذ استخدم الطوب اللبن في البناء ، كما وجد عظام خنزير وحصان ، وتحسنت العصى المقعوفة ، وكثر إنتاج النحاس المحلي ، واتسع نطاق التجارة فاستورد الفيروز والعقيق الأحمر والخرز من الخليج الفارسي . وكونت بعض الجماعات في التركمان مجموعة حضارية واحدة نمت في المدن التي نشأت حول الواحات في مقدمات تلال كوبت داج Kopet-Dag . هذه الجماعات عاشت في منازل طينيةو صنعت فخاراً ملوناً وفي العادة كان لونه بنياً داكناً رسمت أغصان الاشجار عليه على قاعدة بيضاء أو حمراء .

وفي مدينة تيب كارا Tepe Kara عثر الأثريون على بناء طلي الطابق الأرضي منه باللون الاسود ، وقد اعتقد هؤلاء المكتشفون أن هذا المبنى ضريح وأن زراعة القمح والشعير وتربية الماشية والأغنام كانت هي أساس اقتصاد هذه المحلة . هذا ويرجع تاريخ هاتين المدينتين إلى الفترة المحصورة بين الألف الثالثة والرابعة ق.م. ومن المحلات الأخرى التي يرجع تاريخها إلى الألف الرابعة ق.م. موقع جيتون Jeitun ونامازجا Namazga .

وبعد تتبع الزراعة في أقصى الشرق من إقليمنا ، نعود مرة ثانية نحو الغرب عبر النطاق الجبلي الضيق الذي يفصل نهر الفرات عن النظام النهري

للبحر المتوسط لنصل إلى مناطق وفيرة الماء في حوض نهر العاصي وسهول سوريا الساحلية والعمق وقليقيا الشرقية . ويوجد هنا أيضاً قرى تنتمي لبداية العصر الحجري الحديث ، قرى لها تاريخ طويل قبل أن يصل إليها من الشرق حضارة حلف ومعها الفخار الملون واستخدام الحمالة Sling . هذا التأثير الحضاري قد فرض نفسه على مناطق كثيرة هنا حتى وصل بعيداً لساحل البحر الأبيض المتوسط عند اوجاريت « راس شمرا » . وإلى تلال جديدة Judiadah وكورود Kurdu في سهل العمق حيث كان يستورد هناك فخار حلفا . وتوجد بعض الشواهد في هذه المنطقة على أنه أدخل تعديلات على الألوان التي استخدمها الزراع الأوائل ولا سيما في شكلها الميكروليثي الذي انحدرت به من حضارة العصر الحجري المتوسط الناطوفية .

ومما هو جدير بالذكر أنه وجد نوع من الوحدة بين كل قرى هذا الإقليم . فابتدأ من « بيبلوس » وحماه (وادي العاصي) وعبر سهل العمق إلى ميرسين Mersin بقليقيا تميزت حضارات كل المحلات الأولى هناك بالفخار المحروق ذات الوجه الأسود والرسوم الهندسية . كما أن الفؤوس المصقولة سنت في هذه الحضارات . واستعملت فيها منذ البداية المقاشط والمناجل الصوانية والزجاجية . وأدوات الصيد والأواني الحجرية . أما المنازل فقد كانت في العادة مبنية من الطين ذات شكل مستطيل ، وفي بيبلوس واوجاريت كانت الأرضية مدهونة الأمر الذي يذكرنا بجريكو . أما عن نباتاتهم وحيواناتهم فلا نعرف عنها إلا الشيء القليل .

وبينما كانت الحضارة الحلفاوية تنتشر انتشاراً واسعاً من موطنها في أشور ظهرت حضارة جديدة في الوادي الأدنى لنهري دجلة والفرات ولا سيما بالقرب من رأس الخليج الفارسي حيث تمكنت الرواسب الكثيرة التي يحملها الأنهار من بناء أراضي خصبة كثيفة حديثة العمر نسبياً . وقد سميت هذه الحضارة عقب السومريين باسم تل العبيد Al Ubid وتجشم أصحابها العمل

الصعب والمجدي في نفس الوقت في سبيل ري وصرف هذا الوادي حيث يجدد الفيضان خصوبته سنوياً فهو في ذلك يشبه وادي النيل وإن كان يختلف عنه في أنه أقل انتظاماً منه . فالقنوات العديدة والبحيرات الزاخرة بالاسماك والغابات الكثيفة المملوءة بالطيور البرية وحيوانات الصيد ، واشجار النخيل التي تنمو برياً كانت تغطي هذا الوادي . غير أن استغلال هذه الجنة الطبيعية ...

جنة عدن الأصلية — كان يتطلب أيدي عاملة كثيرة وتنظيماً تعاونياً لعدد كبير من الرجال . هذا الأمر حققه العبيديون خلال تاريخهم الطويل . فرووا مزارعهم ، ونموا زراعاتهم التي ساعدت على نمو السكان السريع .

وهكذا تمكنت حضارتهم في فترة من الزمن أن تصبح من القوة بحيث انتشرت على يمين الوادي إلى اقصى المغرب نحو البحر الأبيض المتوسط حيث ظهرت ونمت في ارجاء هذه المنطقة الحضارة الحلفاوية .

أما من أين قدم هؤلاء الذين من الممكن أن نطلق عليهم اسم قبيلة السومريين فلا نعرف على وجه الدقة ولكن ربما كانوا من أصل مختلط جاء جزء منه من أقصى الجنوب وجزء آخر من الأراضي المرتفعة بإيران. وهناك تفسير آخر وهو أن حضارة العبيد ربما نشأت نتيجة لاختلاط عناصر الحضارة الحلفاوية والسومرية بعناصر أخرى سابقة قدمت من جنوب العراق . وقد كان على هذه الجماعات أن تستورد معظم المواد الخام اللازمة لصناعة آلاتهم كالحجارة اللازمة لصناعة الفؤوس والعصي المعقوفة . والصوان غير النقي اللازم لصناعة السكاكين والمناجل . وهذا النقص في الحجارة المحلية دفعهم لاستعمال النحاس بصفة أكثر دورية رغم أنه ظل نادراً . على أي حال ربما استخدمت في صناعة آلات متعددة كالفؤوس ورؤوس الحراب الصغيرة . أما عن الفن المعماري الذي ظهر في هذه الحضارة فكان أساسه سعف النخيل وكانت المباني تشيد من الطوب المجفف تحت أشعة الشمس . ويرجع الفضل إلى العبيديين فى تشييد المحلة الأصلية في اريدو Erudu حيث أسسوا في

باديء الأمر معبداً صغيراً متواضعاً . ثم أخذ يتسع مرة تلو الأخرى بواسطة أجيال متعاقبة إلى ان أصبح معبد إنكي Enki في أول مدينة ملكية للسومريين . وهكذا نجد قصة السومريين هي عبارة عن مقدمة للتاريخ . وبانتشار حضارة العبيد في حوالي الألف الرابعة ق.م. يظهر إلى الوجود المزايا الكاملة لحضارة العصر الحجري الحديث الذي هو موضوع دراسة هذا الفصل .

أما قصة تقديم طريقة حياة العصر الحجري الحديث إلى مصر فمن الممكن تتبع خطوطها الرئيسية بصورة أبسط وأكثر دقة من جنوب غرب آسيا . ويرجع ذلك إلى أنه أصبح معروفاً لنا تماماً الآن أن الزراعة دخلت هنا حينما أصبحت متقدمة لدرجة ما . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب الوحدة الجغرافية الكبيرة للمصريين القدماء . هذه الوحدة من الممكن المبالغة فيها إذ كانت مصر السفلى دائماً سهلة الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط . كما كانت مصر العليا سهلة الوصول في بعض الأحيان من البحر الأحمر . على أي حال فحين نقارنها بالأراضي المقطعة المنتشرة التي ندرسها نجد أن مصر أكثر تماسكاً منها . كما أنها أكثر وحدة وانتظاماً .

أما فيما يختص بالجدل الناشيء ضد تربية الحيوان وزراعة الحبوب في مصر فقد ترك أمره للفصل الخاص بنشأة الأنواع المستأنسة من النباتات والحيوانات . ويبدو أن الزراعة المختلطة التي دخلت إلى مصر عن طريق جنوب غرب آسيا كانت تشبه إلى حد كبير في صفاتها ما سبق ذكره عن الزراعة في تلك المنطقة ، وسوف نلاحظ في مجال دراستنا للمجتمعات الزراعية المصرية الأولى ولا سيما تلك التي تعيش في مصر السفلى أن عناصر آسيوية قد ظهرت بها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لا بد وإن كان هناك بعض عناصر السكان المحلية الكبيرة التي استطاعت أن تحتفظ بتقاليدهم الحضارية الخاصة .

ولا يوجد أي دليل يشير إلى انحدار الحضارة المصرية من حضارة العصر الحجري المتوسط السبيلية الفقيرة غير الأصيلة . غير أن الأدوات الدوانية الدقيقة والشظايا المضغوطة من الجانبين والتي كونت في الحقيقة جزءاً من حضارة العصر الحجري الحديث بمصر قد نمت بمهارة كبيرة مع نهاية فترة ما قبل الأسرات ؛ وربما نمت إلى الحضارة العطرية في شمال إفريقية أو حضارة استيل باي Stillbay في شرق إفريقية . هذا العنصر المحلي القوي أعطى الحضارة المصرية منذ البداية شخصيتها المميزة التي أطلق عليها اسم (Cultural Form) ، وفيها نستطيع أن نرى الأصل الحامي يدخل في لغة المصريين وتكوينهم الجنسي .

وفي بداية العصر الحجري الحديث كانت الأراضي التي تحيط بوادي النيل أقل جفافاً مما هي عليه الآن حيث لا يوجد بالفعل أي امطار تسقط إلى جنوب القاهرة . ففي الفترة الجليدية الأخيرة كانت الحشائش تغطي الهضاب المرتفعة . بينما كانت الأودية التي تجري إلى الوادي مليئة بالنباتات . غنية بحيواناتها البرية التي تشمل الزراف والفهد .

وفي العصر التاريخي – كما تسجل حوائط المعابد خرج المصريون لصيد بعض هذه الحيوانات – الموجودة في الوادي . أما ليبيا فقد ظلت حتى نهاية الألف الثانية ق.م. أرضاً خصبة غنية بحدائق الكروم وبساتين الزيتون وقطعان الحيوانات . ولم يبدأ الجفاف التدريجي إلا منذ ٧٠٠٠ ق.م. حيث تحولت الهضاب من الحشائش العالية إلى الاستبس ثم نهائياً إلى الصحراء . بينما أصبح الوادي نفسه المليء بالمستنقعات أكثر ملاءمة لسكنى الإنسان . وإذا كان هذا القول صحيحاً بالنسبة لوادي دجله والفرات . فمن المستبعد أن يكون هذا بالنسبة لمصر حيث كانت المحلات الزراعية الأولى البعيدة عن قاع الوادي تطمر غالباً بالرمال الزاحفة (١) بعد صراع طويل معها .

---

(١) ذكر البروفسير ج – أ – ويلسون أنه من الصعب جدا العثور على علماء مناخ أو جولوجيون يحتنقون الحتمية المناخية للآثار القديمة .

ويمكن تقسيم حضارة العصر الحجري الحديث منذ بدايتها في مصر إلى نوعين ، أحدهما في مصر العليا والأخرى في مصر السفلى ، ولكن دائماً — كما سنرى — توجد صفات مشتركة كثيرة بينهما ، ليس فقط من ناحية طرق الحياة العامةالممثلة فيالاكتفاء الذاتي لمجتمعات الفلاحين الذين مارسوا الزراعة المختلطة ، ولكن أيضاً بصفة خاصة في الاتجاهات الحضارية . ويعتقد بصفة عامة أن حضارة دير تاسا بمصر العليا هي أقدم حضارة حجرية حديثة عرفت حتى الآن في مصر . ومنذ بداية هذه الحضارة يمكن أن نتتبع بدون انقطاع نمو الحضارات المصرية حتى بداية عصر الاسرات . والادلة في إقليم الدلتا والفيوم أقل اكتمالا من بقية مصر بسبب الجفاف الذي أدى إلى طمر المحلات الأولى . وبسبب آخر رئيسي وهو التغير المستمر في المجاري المائية وتراكم الرواسب التي طمرت مواقع عديدة أخرى. وهناك سبب معقول لعدم البداية بدير تاسا ولكن بتلك الحضارة الموجودة في مصر السفلى . إذ يبدو على ضوء ما سبق ذكره أن هناك احتمالا كبيراً في أن أول الجماعات الزراعية تكونت هنا بعد أن قدمت بطريق الساحل من فلسطين . ومركز الحضارة الناطوفية في حلوان (محلة قديمة للعصر الحجري الحديث ملاصقة لها) له دلالة على هذا الاتصال .

أما منخفض الفيوم فيقع إلى الغرب من النيل على بعد مسافة قليلة إلى الجنوب من الدلتا . هذا المنخفض ما زال يحتوي على بحيره كبيرة ولكن في الألف الخامسة ق.م. كان ارتفاع المياه بالبحيرة حوالي ١٨٠ قدم فوق مستواها الحالي ، حيث كانت محلات العصر الحجري الحديث تنتشر على طول أطراف البحيرة . ولا بد أن الأكواخ كانت بسيطة بدليل عدم وجود بقايا سوى بعض مواقد غارقة وحفر للتخزين مبطنة بحصر وضع فيها الأهالي حبوبها . ومنذ البداية عرف هؤلاء الفلاحون الحضارة الكاملة للعصر الحجري الحديث فزرعوا القمح من نوع Emmer وكذلك الشعير واستأنسوا الماشية

والأغنام والماعز والخنازير . كما زرعوا الكتان ونسجوا منه الأقمشة . ذلك بالاضافة إلى صناعة الفخار غير المزخرف والسلال الدائرية الممتازة . أما المناجل أو السكاكين التي استخدموها في حصد محاصيلهم فكانت مستقيمة تنتهي بأسنان صوانية وتشبه تماماً تلك الموجودة في الحضارة الناطوفية فيما عدا اليد فكانت مصنوعة من الخشب . وقد كانت لديهم خصائص فؤوس العصر الحجري الحديث المصنوعة من الصوان أو من الحصى . وسكان الفيوم كالزراع الآسيويين الذين سبق ذكرهم ظلوا يمارسون الصيد البري وصيد السمك وكان فرس النهر من بين الحيوانات التي اصطادوها . وكانت رؤوس سهامهم دقيقة جداً ذات نهاية رفيعة . كما كانت سنانير صيد السمك تشبه مناجلهم من حيث أنها تحمل طابع الحضارة الناطوفية . وقد استعملوا أيضاً رؤوس الدبابيس ذات الرأس المصنوعة من الحجارة .

أما الصليات أو اللوحات . التي استخدمت في طحن المواد «غالباً Malachite» اللازمة لتلوين العين — فكانت من بين الآلات المصرية وكانت من أجمل الأدوات في عهد الاسرات إذ غالباً ما شكلت بدقة على هيئة منحنى . وتلوين العين مسألة معروفة جيداً لفلاحي الفيوم الذين صنعوا لو ... هم من الزجاج الطبيعي على شكل مستطيل بسيط . وكما هو متبع في معظم مجتمعات العصر الحجري الحديث كانت الأدوات الشخصية للزينة هي الشيء المستورد الوحيد في الاقتصاد . مثل عقود اصداف بيض النعام التي تشبه تلك التي إرتداها القفصيون الأوائل . وقد زين أهل الفيوم أنفسهم بالأصداف التي أحضروها من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وفي بعض الأحيان من المحيط الهندي. ذلك بالإضافة إلى الآلات الموسيقية المزركشة التي احضروها من وسط الصحراء الكبرى أو من الصحراء الشرقية .

ولم يعثر على مدافن في أي مكان بين محلات الفيوم الأمر الذي يوحي بضرورة وجود جبانات بعيداً عن المنازل .

وبواسطة التحليل الكربوني أمكن تأريخ حضارتين لأقدم محلة بالفيوم وأرجع تاريخهما إلى ٤١٤٠ ± ٢٥٠ق.م. و ٤٤٣٧ ± ١٨٠ق.م. إذ يبدو أن هذه المحلة إزدهرت في خلال النصف الأول من الألف الخامسة ق.م. أي نفس الوقت الذي إنتشرت فيه الحضارة الحلفاوية إلى العراق .

وموقع آخر ربما يمثل المرحلة النهائية من حضارة العصر الحجري الحديث في مصر السفلى وهو مرمدة التي تقع على حافة رملية على الطرف الغربي للدلتا . وهنا أيضاً كانت المباني الأولى واهية ولكن صنع الفلاحون بعد ذلك أكواخهم من الأعمدة الخشبية والبوص ، ثم استخدموا في فترة لاحقة الطين لكي يتمكنوا من صنع مأوى جيد يصمد أمام العواصف الرملية ويحول دون إنتشار الأمراض بينهم. ويبدو أن لكل أسرة كوخ ذات فناء أو حديقة خاصة ، وقد رصت هذه الأكواخ في صفوف ربما لكي تحدد الطرق الزراعية وبصفة عامة كانت الاكواخ مطابقة لتلك الموجودة بالفيوم فيما عدا أن الحبوب بدأت تخزن في قدر كبيرة وذلك مع نهاية العصر الحجري الحديث . ورغم وجود إختلافات في شكل فخارهم وأدواتهم واسلحتهم وممتلكاتهم الشخصية إلا أنه هناك كثيراً من الصفات المشتركة بين هذه الحضارة وحضارة الفيوم، أيضاً بصورة أقل وضوحاً بحضارة ديرتاسا. ومن الواضح أن رؤوس الدبابيس كانت آسيوية الشكل في طابع مصري . أما عن الموتى فقد دفنوا بين الأكواخ ووضعوا القرفصاء . وفي العادة كانوا يوجهون نحو الشرق ولم يوضع معهم طعام أو أي أثاث جنائزي آخر .

وتشبه قرية العمره بالقرب من حلوان « الموقع الوحيد المعروف للحضارة الناطوفية في مصر » في كل صفاتها مرمدة ، حيث وضع الموتى ووجوههم نحو الغرب . واحتوت أحد المقابر على عصى خشبية منحوت عليها رسوم قيل إنها تشبه العصى الملكية الصولجان Amès Sceptre التي كانت في الفترة التاريخية من العلامات المميزة لملك الوجه البحري . ويوحي هذا الأمر إلى أن

بعض الفلاحين الأوائل قد حكمهم بالفعل بعض الرؤساء .

وعلى الرغم من وجود بعض الضعف في الأطار العام للتأريخ إلا أنه من المؤكد أنه في أثناء تطور حضارة الفيوم في الشمال نحو مرمدة . وجد في مصر العليا ثلاث حضارات متتابعة وهي دير تاسا والبداري والعمره ، وجميعهم حضارات حجرية حديثة نقية ، ويظهر بين جميعهم أيضاً بعض الصفات الأفريقية المميزة التي تبلورت في الحضارة المصرية .

وقد عرفت المعسكرات التي نشأت على الحافات الصحراوية عند دير تاسا بالقرب من البداري بأنها تعتبر من اقدم المحلات التي انشأتها الجماعات الزراعية في مصر . وبالتأكيد كانت هذه الجماعات بدائية للغاية رغم أنهم زرعوا القمح من نوع Emmer وكذلك الشعير وطحنوا غلاتهم في رحى كبيرة . ويبدو أنه كان لديهم قطعان من الماشية والماعز .

ويعتقد بعض الباحثين أن حياة هؤلاء الناس ربما تشبه حياة الهدندوة الذين كانوا حتى وقت قريب رعاة بالصحراء الشرقية ولكن شيدوا لهم حديثاً قرى ثابتة بالقرب من النيل الأزرق يعودون إليها بانتظام لزراعة المحاصيل بعد الفيضان السنوي . وسواء كانت معسكرات دير تاسا قرى صيفية من هذا النوع أو لم تكن فلا بد ألا ننسى أنهم لا يعطوننا صورة كاملة عن الحياة الزراعية الأولى بالنيل . فقد كان لديهم بعض الأكواخ المتلاصقة فوق حافات أو تلال ترتفع فوق مستوى مستنقعات الوادي . ومما هو جدير بالذكر أن كل بقايا هذه المحلات في الوادي نفسه قد اختفت منذ مدة طويلة نتيجة لطمرها برواسب النهر أو زحزحتها بعيداً بواسطة تغير مجرى النهر وهذا يفسر لماذا نجد آثار المحلات الأولى على أطراف الوادي فقط على مقدمات الصخور العالية على حافات من الديترويت .

ويجب ألا تتصور أن وادي النيل كان مستوياً ودون أي ظاهرت كما هو في وقتنا الحاضر ، ولكن كان مرصعا باكواخ منتشرة على الضفاف

المرتفعة لمجاري الماء ، ومحاطة بقنوات دائبة على تغير مجراها ومستنقعات وسبخات (١) .

وقد كان هذا هو المجال الذي وضع فيه التاسايون . وإلى جانب ذلك اشتغل التاسايون بطحن الغلال والغزل وصناعة الفخار ، وفي بعض الأحيان خرجوا من أكواخهم ووقفوا يتحدثون مع بعضهم إذا لم يكن لديهم عمل . هكذا كانت طبيعة البلاد وكان عليهم الاقتناع بها حينما ذهبوا لصيد الاسماك بسنار صنع من الاصداف أو القرون، أو لتصيد طيور الماء وحيوانات المستنقع بالقوس والسهم ، أو لقيادة الماعز إلى الأراضي الفيضية المنتشرة . وقد كان لدى أهل تاسا — كسكان الفيوم — لوحات من الزجاج الطبيعي . استخدمت في سحق وخلط الكحل eye paint ، وتزين الأهالي بالأساور العاجية والأصداف التي أحضروها من البحر الأحمر . أما عن موتاهم فقد وضعوهم منحنين أو في وضع القرفصاء ولفوهم بالجلود ودفنوهم في أكفان من القش . وهذه المقابر القليلة المتناثرة تكفي للإشارة إلى أن هذه الجماعات كانت صغيرة العدد ومتنقلة .

وربما كانت حضارة البداري حضارة متطورة عن حضارة تاسا ، غير أن نطاق معرفتها كان أوسع . فامتدت من البداري نفسها جنوباً حتى وصلت إلى أرمنت . كما وجدت أيضاً في وادي الحمامات . وظل القمح من نوع Emmer والشعير هما أهم الحبوب التي زرعت ، ولكن البداريين بدأوا في تخزين الحبوب في حفر مبطنة من الطين ، كما ربوا الاغنام . وعلى النقيض من سابقيهم كانوا رعاة ماشية . ولما كان هناك وفرة من الصيد على الهضبة وكذلك في روافد الأودية فقد خرج البداريون للصيد بالقوس والسهم وعصى Boome Range (٢) . ولكن في صيد الاسماك استخدموا سنانير من الأصداف أخذوها عن التاسايون . وظلت أكواخهم تشبه تلك الموجودة

---

(1) H. Frankfort, The birth of civilization in the Near East, P. 41

(٢) البومرانج عبارة عن سلاح خشبي قديم ترمى منه القذيفة فترتد إلى صاحبها .

في مرمدة فهي عبارة عن مأوى بسيط من الحصير . ولكن في معظم النواحي الحضارية الأخرى كانت أداواتهم المستعملة وفيرة جداً . وعلى وجه الخصوص كان البداريون صانعي فخار من الدرجة الأولى امتازوا بالمهارة والدقة فصنعوا فخاراً رقيقاً غطى بطبقة مصقولة وصنعت أشكاله بنسبة معقولة . وفي اغلب الأحيان كان لون القدر بني أو أحمر أما الاطراف فكان لونها أسود ويرجع ذلك كليه إلى طريقة الحرق . وصنعت بعض القدر الأخرى من البازالت كما نحتت بعض الأواني الصغيرة من العاج التي استخدمة أيضاً في صناعة المغارف الصغيرة الجميلة . وفي بعض الاحيان نحت على أيدتي الأواني الفخارية حيوان ، وقد ظهر هذا النمط من النحت في المعالق الطويلة الجميلة التي صنعها المصريون في عهد الاسرات . ولما كانت الأفيال لا تزال تعيش على الهضبة فقد قدمت المادة الخام اللازمة لصناعة الخرز العاجي والدبابيس وغيرها من أدوات الزينة كصنع الامشاط التي تزين بها النساء . وسدادات الانوف Nose plugs التي صنعت من الحجارة .

إذن فسكان البداري كانوا يعيشون فوق مستوى الكفاف إلى حدما ، مع وجود مواد خام استخدموها في تجميل أنفسهم وممتلكاتهم . وهذا يظهر بوضوح في مقدرتهم على الاحتفاظ بقليل من التجارة في سلع الترف فاحضروا الدهنج Malachite لكحل العين من سيناء أو من النوبه . والأصداف من البحر الاحمر . والاحجار النصف قيمة مثل الفيروز . خشب الأرز الذي اعتبر أهم سلعته مستوردة -وخشب الصنوبر من سوريا . أما عن القوارب الصغيرة التي استخدموها في الملاحة النهرية فهناك دليل يثبت أنهم صنعوها وهذا الدليل عبارة عن نماذج معمرة للقوارب من الفخار . وعلى الرغم من أن جبانات البداري كانت صغيرة إلا أنها كانت من الكبر بحيث تبرهن على نمو السكان . وقد وضع الموتى في المقابر على هيئة القرفصاء ولفوا بالجلود تبعاً للعادة التقاليد لأهل تاسا ، وقد دفنوا في مقابر طولية ضيقة ووضع معهم قدر

مملوءة بالطعام والشراب . وبعض المقابر وضع فيها تماثيل للسيدات صنعوها من العاج أو الطين .

ووجدت بين البداريين الأمثلة الأولى لشعائر دفن الحيوانات والتي أصبحت فيما بعد من أبرز خصائص الحضارة المصرية . فمن المعروف أن كلا من الماشية والإغنام كان يصحب دفنها بعض الاختلافات .

وإذا كانت حضارة البداري أظهرت اقتصاداً مادياً سمح بصناعة أدوات الترف واستيراد المواد الخام الغالية ، فحضارة العمره التي تبدو وكأنها انحدرت مباشرة منها ، تقترب كثيراً من بداية الحضارة . ففي الواقع يمكن وضعها مع نهاية حضارة العبيد كعلامة مميزة لنهاية العصر الحجري الذي هو موضوع هذا الفصل .

والأسس الاقتصادية لحضارة العمره كانت أكثر قوة من الحضارات السابقة إذ أن العمريين لا بد وأنهم بدأوا زراعة منظمة في السهل الفيضي للنيل رغم أنه لا يوجد دليل حتى الآن للري الصناعي وقد ربوا الماشية واغنام والخنازير ، واستخدموا الماشية للألبان ولإنتاج اللحوم ، وربما استأنسوا الحمار كحيوان لحمل الأثقال . كما عرفوا لصق اوراق البردي Papyrus جنباً إلى جنب لصناعة قوارب تذكرنا بتلك التي استخدمت في النقل ابتدأ من العصر الفرعوني وحتى وقت قريب ورغم أن الصيد ظل يساهم بنصيب كبير في الطعام إلا أن الأساس الاقتصادي القوي لطرق حياتهم أدى إلى زيادة سكان العمره زيادة كبيرة . فسكنت القرى بصفة دائمة كما استخدمت المقابر أجيالا وأجيالا إلى أن احتوت على حوالي ألفي مقبرة . أما صور التماسيح والثعابين السامة وغيرها من الحيوانات التي لا تستخدم في التربية أو تصطاد فقد فسر وجودها في بعض الأحيان على أن هذه القرى سكنت فيها عشائر طوطمية كما هو الحال بين جماعات الدنكا الحديثة الموجودة بأعالي النيل ، وهي أحد الجماعات النيلوتية التي يظهر أنها ورثت معظم حضارتها وتكوينها الجنسي عن جد مصري قديم .

أما عن حرف سكان العمره فقد تطورت في جميع نواحيها عن تلك التي ظهرت بين أسلافهم سكان البداري فيما عدا صناعة الأواني التي امتازت بقصور في صناعة فوهاتها السوداء وفي طلائها باللون الابيض . ووصلت صناعة الشظايا الصوانية المضغوطة إلى درجة عالية من الأتقان من حيث الفن والشكل ، بينما الأمشاط العاجية المنحوتة والمعالق الطويلة والأواني التي كانت لديهم تطورت هي الأخرى تطوراً كبيراً . أما عن صناعة النسيج فقد استخدموا الأنوال الرأسية ، كما أضافوا في هذه المرحلة الذهب إلى جملة المواد الغالية المستوردة للزينة ، واستخدموا النحاس المحلي في صناعة الدبابيس ورؤوس السنانير . واستخدمت الصليات في إعداد الكحل الذي بدأ يستخدم في رسم المخلوقات ولا سيما السمك وفرس النهر .

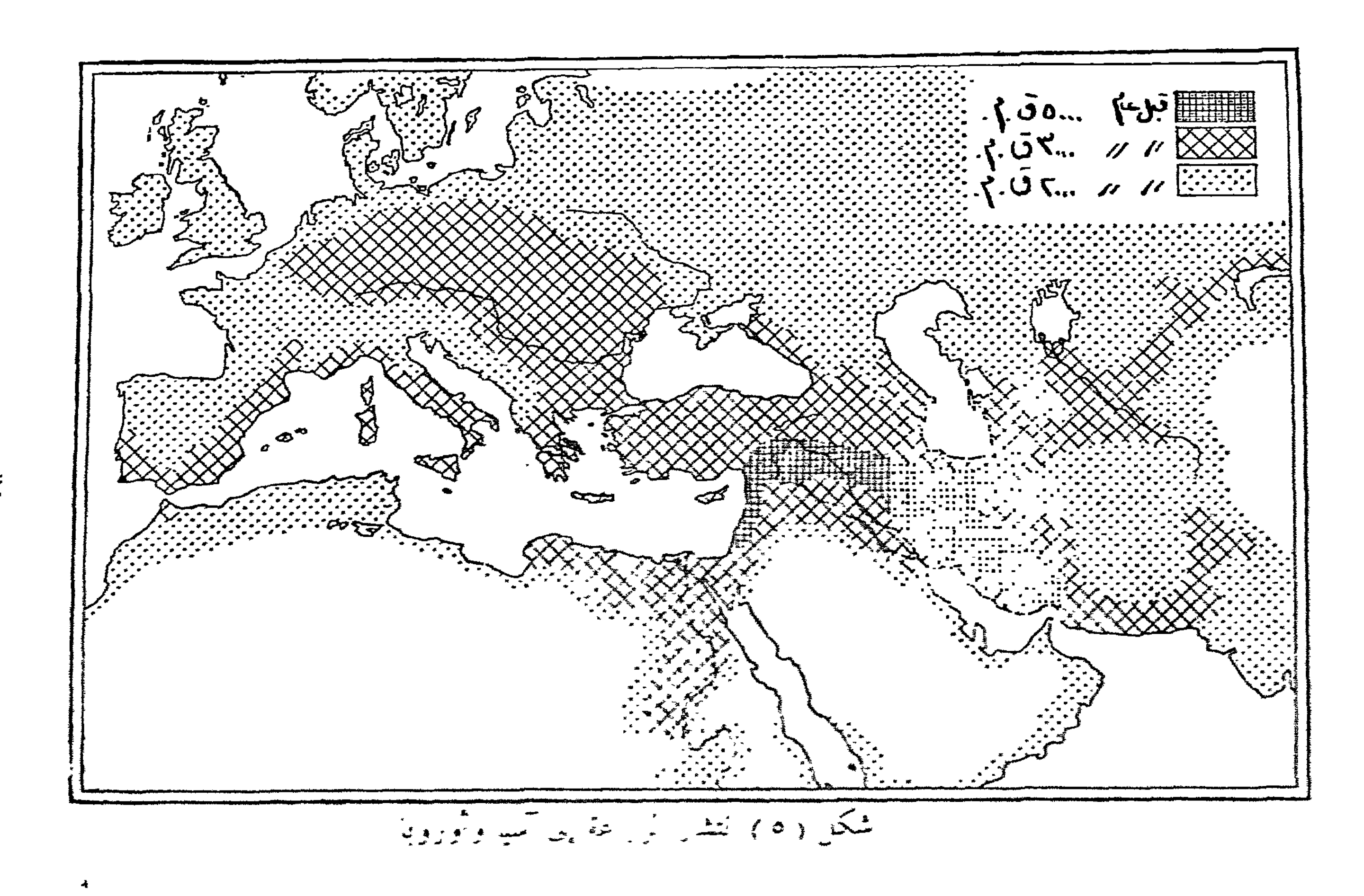
ويبدو أن العمريين — كما تشير إلى ذلك أشكال أوانيهم الحجرية ومعالقهم الطويلة ولوحاتهم وغيرها من المنتجات التي تظهر مهارتهم . بدأوا يظهرون بكل تأكيد الروح الحضارية الخاصة Culture Form التي ميزت التاريخ الطويل للحضارة المصرية . وهذه الروح تظهر بوضوح في عادات الدفن وغيرها من المراسيم الدينية ، أما القبور في العمره فما زالت على شكل حفر غير أنها أسست بطريقة تقودنا بدون انقطاع إلى العادات الجنائزية الراقية المميزة للتاريخ المصري . وفي هذه الحضارة لم يزود الميت بالاسلحة وأدوات الزينة والبضائع (إنسان العصر الحجري القديم فعل ذلك ايضاً) بل أيضاً بنماذج من النساء والخدم الذين عاشوا معه قبل مماته « Ushabti » . اما المناظر التي رسمت على القدر فلا بد وأن كان لها نفس غرض النقوش الدنيوية التي تفيض بها حوائط مقابر الاسرات .

فسكان العمره إذن ما زالوا أساساً جماعات من فلاحي العصر الحجري الحديث يعيشون في قرى كبيرة ، أما حضارة جرزه ، فهي حضارة أخرى جاءت بين العمريين والأسرة الأولى . ولكن كما هو الحال بالنسبة للعبيديين في آسيا لا بد وأن ننظر للعمريين على أنهم نهاية طريقة حياة العصر الحجري الحديث

التي نهتم بها هنا . وما أن وصلنا بتاريخ الإنسان في كل من مصر وجنوب غرب آسيا إلى هذه المرحلة التي بدأت فيها الحضارة تزدهر في واديين نهريين كبيرين إلا ونجد أن الوقت قد حان لنترك تلك الأقاليم الوسطى التي شهدت بداية ثورة العصر الحجري الحديث لنتتبع الانتشار التدريجي للزراعة إلى أوروبا وشرق آسيا .

هذا الانتشار التدريجي للزراعة ولغيرها من مظاهر حضارة العصر الحجري الحديث سوف يتركز بصفة عامة على أطراف المنطقة الأولى التي عرفت أصول حضارة العصر الحجري الحديث (شكل ٥) . وهنا في مجال الدراسة سوف نبذل محاولة بسيطة لتتبع الموجات الثانوية أو التطور المحلي الذي ظهر في ثنايا هذا الانتشار التدريجي ، مع ملاحظة أنه بينما ظل المستوى الحضاري واحداً إلا أن الفترة الزمنية للأخذ بهذا المستوى آخذت تتأخر وتتأخر كلما اتجهنا من المراكز القديمة للزراعة صوب الاطراف . على أي حال لا بد ألا نغفل أنه في هذه الأثناء كان هناك أناس قد بدأوا بالفعل المعيشة في المدن وذلك في مراكز حضارات الاودية المدنية وذلك قبل أن يتمكن اقتصاد العصر الحجري الحديث من الوصول إلى المناطق البعيدة . ولهذا فالمناطق المدنية الثانية والثالثة قد نمت في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وشرق أوروبا والهند قبل أن تصل طرق الحياة الزراعية بأشكالها المتواضعة إلى الأراضي التي تقع في أقصى الشرق والغرب . وفي الواقع كان نمو الحياة المدنية (١) أحد سببين رئيسيين لانتشار الاقتصاد الجديد . ففي الوقت الذي كان يذهب فيه التجار من مدينة إلى أخرى ليحصلوا على خاماتهم الرئيسية من المواد الخام أو سلع الترف لسكان المدن ، أخذت القرى الكبيرة والمدن الصغيرة تنمو نتيجة لطالب المواد الخام بينما الحاجة إلى الطعام لسد حاجة العمال المتخصصين الجدد والتجار جعلت الزراعة تتسع وتتسع بعيداً في الحقول . والعامل الثاني القوي وراء هذا الانتشار كان طريقة الزراعة البدائية نفسها . هذه الطريقة التي كانت تسبب اجهاد التربة — قبل إدخال نظام الدورة الزراعية

(١) ازدهرت الحياة المدنية بسرعة مادمت كانت الظروف مواتية لذلك وطالما كان هناك أساس زراعي ثابت .



شكل (٥) انتشار الزراعة في آسيا وأوروبا

والتسميد — في كل الجهات فيما عدا تلك الأودية المحظوظة التي جددت الطبيعة خصوبتها بدون مساعدة . وهكذا كان على مجتمعات الفلاحين في الدانوب أن تترك محلاتها من آن لآخر وتذهب لتطهير حقول جديدة في أماكن غير مأهولة أو أراضي ما زالت في أيدي الصيادين وجامعي القوت . وهكذا كلما توغلت هذه الحضارات داخل القارات وجدت طرقاً لتحمل صفات العصر الحجري الحديث والتي اهمها الزراعة وتربية الحيوان واستخدام الفؤوس الحجرية المصقولة والعصي المعقوفة وصناعة الفخار والنسيج .

وعلى عكس النظرية القديمة رأينا كيف مورست الزراعة في بعض أجزاء جنوب غرب آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط قبل اختراع الفخار بزمن طويل . ولم تترك وراءها حرفاً متعددة فحسب (١) بل تركتها على نطاق واسع فيما عدا المناطق المنعزلة التي امتدت في شمال شرق أوروبا واقصى شمال آسيا حيث استخدم صيادو هذه المناطق الفخار والفؤوس الحجرية رغم أنهم لم يدخلوا أي تغير على طريقة حصولهم على الغذاء . ولا بد من ذكر أننا لا نستطيع الاطالة في هذا الفصل لكي نتناول الانتشار المتأخر للزراعة في المناطق المعزلة في شمال أوراسيا إذ لا بد من تحديد نطاق بحثنا بذلك الانتشار الذي ما زال مرتبطاً بطريق مباشر بصورة أو أخرى بمناطق نشأة الزراعة الأولى في جنوب غرب آسيا ومصر أو بعبارة أخرى المناطق التي وصلت إليها الزراعة في فترة لا تزيد على ٢٥٠٠ ق.م.

ويبدو أن أهم نقط انتشار حضارة العصر الحجري الحديث صوب الغرب على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط كانت الطريق الشرقي للبحر ولا سيما من سوريا وقليقيا كما أن احتمال وجود عنصر أفريقي قادم من مصر ما زال أمراً باقيا رغم أن هذا لا يختص أساساً بالانتشار الأصلي للزراعة بقدر ما يختص

---

(١) يبدو ان النسيج كان معروفاً في بريطانيا أثناء العصر الحجري الحديث .

بالانتشار الثانوي لحضارة العصر الحجري الحديث الغربية . وأول إنتشار (اللهم ألا إذا ثبت أن هناك مرحلة قبل صناعة الفخار) تميز بنوع من الفخار صممت رسومة على الطين قبل حرقه ، وصنعت أطرافة غالباً من الصدف . هذا هو فخار أقدم محلة في ميرسين Mersin ، وايضاً في رأس شمرا وبيبلوس وبعض المدن السورية الاخرى . ووجد أيضاً هذا الفخار نحو الغرب في حوزة أقدم المجتمعات الزراعية في كريت ومالطة وجنوب ايطاليا وصقلية وجنوب فرنسا والساحل الشرقي لأسبانيا . كما وجد أيضاً في عدد من الجزر الصغيرة التي تشمل ليفكاس Levkas (١) وليباري Lipari (٢) والبا Elba . ونفس التقاليد ظهرت أيضاً في عدد من النقط على طول الساحل الشمالي لإفريقية.

هذا دليل إذن على أن كل المجتمعات الزراعية انتشرت عن طريق البحر حيث أقاموا قراهم واكواخهم باحجام كبيرة نوعاً ما في بعض الأراضي الخصبة على طول سواحل وجزر البحر المتوسط . وربما بدأ هذا الانتشار الواسع من مصادره الشرقية قبل بداية الألف الرابعة ق.م. ، أما عن الفترة الزمنية التي استغرقها وصول هذا الاقتصاد إلى فرنسا وأسبانيا فأمر غير محدد حتى الآن . فربما أخذ ما يزيد على ألف عام . ويجب أن نلفت النظار إلى أن بعض الزراع الأوائل قد اعتصموا هنا وهناك في بعض الجزر الصعبة الوصول والتي يقطنها جماعات الصيادين . هؤلاء لا يمثلون السكان الأوائل لشواطيء البحر المتوسط ، كما أن حضارتهم تأثرت بحضارة صيادي وجامعي قوت العصر الحجري المتوسط الذين استقروا بينهم . وفي بعض المناطق في غرب البحر الابيض المتوسط اعتنقت عناصر السكان القديمة الاقتصاد الجديد ولكن رغم ذلك ظلت أقل تقدماً من فلاحي كريت وصقلية . فقد

---

(١) هذه هي جزيرة نيقوسيا بكريت وتقع على خط عرض ١٢َ ٣٥ْ ش وخط طول ١٠َ ٣٠ْ شرقاً . المترجم .

(٢) هذه الجزيرة تبعاً لايطاليا وتقع على خط عرض ٣٥َ ٣٨ْ ش وخط طول ٥٠َ ١٤ْ شرقاً . المترجم .

استعملوا الكهوف بكثرة كمأوي لهم وكجبانات واعتمدوا أساساً في حياتهم على تربية الحيوان والصيد . وفي بعض المناطق ولا سيما في أسبانيا بقيت طريقة الحياة هكذا لعدة قرون طويلة واستمروا كذلك إلى أن استخدم النحاس والبرونز بواسطة أناس أكثر تقدماً في غرب البحر الأبيض المتوسط .

ومن أحسن الأمثلة،ومن أهم مواقع بداية حضارة العصر الحجري بالبحر الأبيض المتوسط كريت وصقلية . ففي كريت لا بد أن محلاتها قامت مع بداية الألف الرابعة ق.م. قبل الفترة المينوية الأولى في كنوسوس إذ أن بقايا قرى العصر الحجري الحديث يصل ارتفاعها هنا إلى أكثر من ٦ أمتار . وبالتأكيد وجد الفلاحون في الأراضي المنخفضة الخصبة فرصة لإقامة زراعة كافية ومن ثم فقد شغلوا الأرض بصفة دائمة . وقد عاش الكريتيون في العصر الحجري المتوسط في منازل مكونة من حجرات صغيرة متلاصقة بنيت على أساس حجرى . وقد استخدموا فؤوس صوانية مفلطحة ، وحصلوا على الزجاج الطبيعي من ميلوس ، وصنعوا الفخار الجيد ، وقدسوا الهة الخصوبة وكانوا بصفة عامة يمثلون طلائع المجتمعات الزراعية في البحر الأبيض المتوسط .

ولا يوجد أي أثر لصيادي العصر الحجري القديم في الجزيرة ، ومن المحتمل أن الزراع الأوائل استعمروا هذه الجزيرة من شرق الأناضول أو سوريا ، وبعد ذلك ساعدها موقعها الجغرافي وفرصة وجود رياح مواتية وتيارات بحرية على سهولة الوصول اليها من كل مناطق شرق البحر المتوسط بما في ذلك مصر . ومن هنا كانت أهميتها كمركز لحضارة من أهم الحضارات التي حققها الإنسان .

ومن الممكن دراسة المركز الثاني للانتشار البحري في جنوب أيطاليا وعلى وجه الخصوص في جنوب شرق صقلية وأبوليا . وربما استطاع الفلاحون هنا قبل الألف الثالثة ق.م. من تأسيس قرى كبيرة محاطة دائماً بحفر

أو أسوار . ذلك بالإضافة إلى أنهم رزعوا الحبوب (١) وربوا الماشية المعتادة والأغنام والماعز والخنازير فقد كان لهم الفضل في تربية الجاموس . وبالتأكيد كانوا زراعاً مهرة إذ أن قراهم كانت كثيرة ومتناثرة . وقد استخدموا البازالت والكوارتز وغيره من الصخور المحلية في صقل المخارز وغيره من الأدوات ، واستوردوا الزجاج الطبيعي ربما من أقرب المصادر إليهم من جزر ليباري حيث وجدت هناك آثار من حضارتهم . وقد كان من المدهش أن يخرج أصحاب حضارة ستينتينلو Stentinello من صقلية ويصبحوا المستعمرين الأوائل لمالطة . ومن المحتمل أنهم استقروا هنا في خلال القرون الأخيرة من الألف الثالثة ق.م. فقد كانوا مسؤلين هم وأحفادهم عن معابد مالطة الفاخرة ذات الشكل المعماري الميجاليثي المميز ، وعن تماثيل الهة الخصوبة المنقطعة النظير .

وقد تبع الزحف الأول لحضارة العصر الحجري الحديث على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط زحف ثاني وأن لم يتمكن الزحف الأخير من التوغل بعيداً . ويبدو مرة أخرى أن هذه الموجة أنبعثت من جنوب غرب آسيا الذي كان ينظر إليه في ذلك الوقت على أنه قلب العالم القديم والنبض الدافع للطاقات الحضارية نحو القارات الأخرى . وبينما استطاع الرواد الأول للعصر الحجري الحديث تشكيل فخار متين تمكن أحفادهم من صناعة فخار مطلي رقيق . ومن الممكن أن ننظر إلى انتشارهم في البحر الأبيض المتوسط على أنه استمرار لهؤلاء صناع الفخار المطلي — مثل السومريين وسكان تل حلف الذين حملوه إلى سوريا وجنوب شرق الاناضول. ويبدو أيضاً أنهم وضعوا النهاية للمحلات الأولى لأصحاب الفخار المميز Impressed Pottery .

وبنفس الطريقة تماماً تبعت حضارة الفخار الملون حضارة قبل سيسكلو Pre Sesklo باليونان وحضارة Stentinello بأيطاليا وصقلية والجزر

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن محصولاتهم غير معروفة . المترجم

الايونية . أما فيما وراء هذه المناطق فلم يستطع تيار الحضارة بأي قوة أن يتوغل إلى غرب البحر الأبيض المتوسط . وهناك فرع آخر من السكان حملوا حضارة الفخار الملون عبر الشمال إلى البحر الأسود ثم انتشروا بعد ذلك من جنوب روسيا إلى رومانيا والبلقان .

بقي بعد ذلك أن ندرس الأنتشار البري الكبير لحضارة العصر الحجري الحديث إلى غرب أوروبا . غير أن صلة القرابة بين الفلاحين أصحاب الفخار الملون وبين سابقيهم الذين انتشروا على طول نهر الدانوب واخترقوا المناطق الغربية إلى أن وصلوا إلى بلجيكا ما زال أمراً غامضاً . على أي حال لا بد أن نذكر أولا شيئاً عن دور الأناضول .

وقد سميت الأناضول باسم الطريق الملكي إلى بحر ايجية ، والممر الطبيعي عبر الهضبة من آسيا ، « طرق الأناضول » . إذ كانت آسيا الصغرى في الواقع مقدمة لآسيا نحو أوروبا ،وكانت ممراً حيوياً هاماً لعبور الحضارة من قارة إلى أخرى . وفهم بداية تاريخ العصر الحجري الحديث في وسط وغرب الأناضول ما زال محدوداً جداً . فإذا ما ثبت أن محلات قبل صناعة فخار العصر الحجري الحديث فيتسالي Thessaly ترجع حقيقة إلى تاريخ قديم فمن المحتمل أن تكون نفس المرحلة قد ظهرت أيضاً في الأناضول ، غير أنه لم يثبت ذلك بعد . ويبدو أن طريقاً لتجارة الزجاج الطبيعي كان يتجه غرباً من المنبع الغربي لبحيرة سولت Salt lake وكان على درجة كبيرة من الأهمية . وربما تكون هاجيلار Hajilar أقدم موقع حجري حديث عثر عليه في هذا الأقليم وارجع تاريخه إلى منتصف الألف السادسة ق.م. ، إلى فترة معاصرة على وجه التقريب لحضارة ما قبيل سيسكلو Proto Seklo باليونان ، أما Rum Tepe في الترواد Troad فيرجع تاريخها إلى الألف الرابعة . وقد استخدم النحاس بالفعل في الصناعة في المحلات الأولى في هيسارليك Hissarlik (طرواده) وتيرمى Thermi . وعلى الرغم من

صغر مساحتي هاتين المحلتين إلا أنهما تعتبَّران أول المدن الحقيقية إذ أشتغل السكان بالتأكيد في التجارة مع بحر إيجه . وعلى أي حال كانت الزراعة المختلطة هي أساس اقتصادهم ، فقد زرعوا بعض الحبوب كالقمح والشعير والذرة الرفيعة وبعض الخضروات والفاكهة التي ربما شملت العنب ، وربوا أيضاً الماشية والإغنام والماعز والخنازير وكغيرها من الاماكن كانت الألهة الخصوبة السيطرة الكاملة على معتقدات التجار والفلاحين على السواء .

وقد ظهر في بحر ايجه محلات تجارية مشابهة تنتمي إلى بداية عصر المعدن ، وتركزت في سيكلاديس Cyclades تلك الجزر التي تكون بقايا الممر البحري الذي كان يصل الأناضول باليونان والذي عن طريقه انتقلت الحضارات من آسيا إلى أوروبا . وهذه الجزر – بصفة عامة – فقيرة صغيرة لا تجذب إليها الفلاح الذي اعتنق طريقة الحياة الرئيسية في العصر الحجري الحديث ، ولكن في خلال الألف الخامسة ق.م. نشأ في تيسالي بواسطةاليونانيين قرية تنتمي إلى العصر الحجري الحديث . ويبدو أن جماعات هذه الحضارة «السيسكلاو» كانوا يعيشون في سلام تام ، وكانوا يستخدمون النبال في الصيد ، غير أنهم عتمدوا على نوع من الزراعة المختلفة يشبه إلى حد كبير ذلك النوع السائد في الأناضول . وربما كان لديهم تحركات فصلية لهم ولقطعانهم ، رغم أن إنتاج الزراعة كان كافياً لدرجة تسمح بالاستقرار في القرية فترة طويلة من الزمن . وبصفة عامة كانت هذه القرى اليونانية مكتفية ذاتياً إلى حد كبير ولم تستورد إلا الزجاج الطبيعي .

أما في مقدونيا فقد كانت الأحوال الطبيعية مختلفة تماماً عن ذلك إذ أن المنطقة كانت مغطاة بغابات كثيفة كما كان شتاؤها قارساً . وربما كان ذلك سبباً في اختلاف التقدم الحضاري هنا عن ذلك الموجود في بحر إيجه والذي يظهر شخصية اوربية معقدة . واقدم قرية معروفة في الأقليم هي قرية هاليا كمون Haliakmon والتي كانت في الحقيقة مركزا خارجياً للبريد لأ صحاب الحضارة السيسكلوية . ويظهر أن هذا العنصر سرعان ما استوعب في عنصر آخر يتمثل من هؤلاء اصحاب الحضارة التي اطلق عليها اسم فاردار –

مورافا Vardar - Morava . وهذه الحضارة مهمة جداً لتفهم أي انتشار لشعوب زراعية في القارة الأوربية إذ أنها تمتد على يمين الدانوب الأوسط وفيما وراء إلى إقليم البنات Banat وترانسلفانيا . ومن المحتمل جداً أن مخترعي هذه الحضارة قد أدخلوا الزراعة إلى إقليم الدانوب . وإذا كان هذا صحيحاً فلا بد وأن يكونوا هم المسؤلون إلى حد ما عن الانتشار غير العادي الأخير الذي حمل الزراعة على طول الوادي النهري وعلى أراضي تربة اللويس المحيطة إلى أن وصلت إلى غرب أوروبا. وربما لعب مزارعو فاردار — مورافا دوراً ثانوياً في نقل طرق حياة العصر الحجري الحديث من بحر إيجه إلى الدانوب وقد عاشوا في منازل بنيت من الطوب النيء أو الحصر التي زودت في بعض الأحيان بأفران طينية ، وكانت زراعتهم شبيهة جداً بالتي ذكرت فيما سبق ، فزرع القمح والذرة إلى جانب بساتين التين ، بينما اشتملت تربية الحيوان على الماشية المعتادة والأغنام والخنازير . وكما هو الحال بين فلاحي سيسكلو اقترح البعض أنه على الرغم من أن الزراعة كانت كافية لامداد قرى ثابتة إلا أن الرعاة كان يقودون حيوانتهم خارج قريتهم في طرق طويلة فصلية تشبه تلك التي يقوم بها حالياً فلاش Vlachs البلقان . وقد ظل الصيد يمثل بعض الأهمية في اقتصادهم إذ أن الوعل كان وفيراً في الغابات . ولا يوجد شيء أوضح من فخارهم الممتاز فهو حلقة اتصال بين حضارة فاردار — مورافا (١) واليونان من جهة والدانوب من جهة أخرى .

فالرياح الجليدية التي كان لها فضل تكوين طبقات تربة اللويس الممتدة من سيبريا إلى بولنده وغرباً حتى بلجيكا مهدت الطريق لحضارات الدانوب الحجرية الحديثه التي كانت متجانسة لدرجة كبيرة على الأقل في المنطقة

---

(١) يذكر البروفسير نوستوبني Neustupny أن مصطلح حضارة فاردار — مورافا قد طغى عليه بصفة عامة في الوقت الحاضر بعض المصطلحات الأكثر قيمة مثل حضارة ستاركيو ١ ، ٢ Starcewo أو حضارة فينسيا Vinca culture أو حضارة بوباني Babani ، التي تبين اوجه مختلفة أو مجموعات حضارية مختلفة من العصر الحجري الحديث تقدمت شمالا من اليونان عبر وادي الفاردار — ومورفا منذ عام ٣٥٠٠ ق.م.

الممتدة من المجر وحتى حدودها الغربية . وقد عمرت أراضي تربة اللويس في شمال وغرب الدانوب أولا بأصحاب حضارة العصر الحجري الحديث الذين يتفقون في تفاصيل حضارتهم في كل المنطقة الممتدة من المجر إلى شمال المانيا ومن بلاد الغال إلى بلجيكا . . . وربما كانت هذه الحضارة هي أكثر حضارات العصر الحجري الحديث كلاسيكية في العالم القديم . وعلى الرغم من أن إنسان العصر الحجري القديم قد شوهد يصطاد الماموث عبر أراضي اللويس إلا أن سكان العصر الحجري الحديث وجدوا طريقهم إلى الغابات المجاورة لهذه الاراضي في الشمال والغرب . ولهذا ليس بعجيب أن يكون الفلاحون متجانسين إلى حد كبير طبيعياً وأيضاً في مساكنهم وصناعتهم. هذا ولم يكتشف من مقابرهم إلا القليل التي تثبت أنهم كانوا ضيقي الرؤوس وبصفة عامة يتبعون نموذج البحر الابيض المتوسط .

وتربة اللويس ملائمة تماماً للزراعة البدائية إذ أنها ذات صرف طبيعي جيد ، قليلة الغابات ويمكن أن تستخدم العصي المعقوفة في زراعتها بنجاح . كذا أن موارد المياه متوفرة في معظم الأقاليم . ونتيجة لطرق الزراعة البدائية التي مورست في تربة كهذه أن اجهدت التربة بسرعة وقلت خصوبتها غير أن التربة العذراء كانت موجودة دائماً ولذلك كان من الممكن هجر القرية القديمة وزراعة مناطق جديدة . وهكذا اندفع الفلاحون أو الدانوبيون على طول ممر عريض قادهم إلى مناطق غير مأهولة أو قليلة السكان ، مسكونة بقبائل متناثرة تعيش على الصيد والجمع .

ورغم التشابه الكبير في كل هذه المنطقة الواسعة الانتشار امكن تمييز ثلاث مجموعات حضارية في المرحلة الأولى . فإقليم البنات في اقصى الشرق وجنوب شرق المجر كان بينهما تشابه وبين سكان فاردار - مورافا المقدونيين . وفي الحقيقة ربما كانوا — ببساطة — فرعاً من هؤلاء الناس الذين لاءموا حياتهم للمعيشة في سهول اللويس ، أو ربما كانوا أحفاد الجماعات غير المعروفة التي

كانت تعيش في العصر الحجري المتوسط والذين اعتنقوا النظام الاقتصادي الجديد . وبالتأكيد كان الصيد بالفخاخ والسهام والقوس والصيد بالشباك شيئاً مهما في حياتهم الاقتصادية على الرغم من أنهم كانوا يرعون القطعان ويربون الخنازير ويمارسون الزراعة المتنقلة . وفخارهم مشابه تماماً لمعتقداتهم فهو كتماثيل الهة الخصوبة يوضح الصلة القوية بالحضارة المقدونية الهامة .

وفي شمال شرق المجر وساوفاكيا Slovakia استمر أصحاب حضارة بوك Bukk culture يمارسون الصيد البري والبحري على نطاق كبير ، كما استخدموا الكهوف كمنازل لهم في الشتاء . وفي بعض النواحي الأخرى كان لهم صفات مشتركة كثيرة جدا مع الحضارة الكلاسيكية الكبيرة المعروفة لدى الأركيولوجين باسم دانوب ١ .

والأساس الاقتصادي لهذه الحضارة هو زراعة الحبوب وغيرها من المحاصيل الغذائية في قطع صغيرة معتمدين في ذلك على العصى المعقوفة . وقد كانت محصولاتهم الرئيسية القمح من نوع Einkorn والشعير ، غير أنهم زرعوا ايضا القمح من نوع Emmer والبسلة والفول والعدس . أما الماشية التي ربوها وكذلك الأغنام والخنازير فكانت اعدادها صغيرة نسبياً ، وعلى النقيض من جيرانهم الشرقيين كان سكان دانوب ١ من الفلاحين الذين لا يمثل الصيد البري والبحري لديهم أي أهمية كبيرة . ويبدو أنهم كانوا يقضون بصفة عامة فترة تتراوح بين عشر سنوات وربع قرن في زراعة الأراضي المجاورة للمدينة وبعد ذلك تجهد التربة فيتركونها ويتحركون لاستغلال موقع جديد . ومنازلهم كانت عبارة عن مباني كبيرة جداً ذات شكل مستطيل ، وفي بعض الأحيان كانت تصل مساحتها إلى ٩٠ × ٢٠ قدم ، رفعت على اعمدة وصنع لها سقف مائل . وربما تمكن الفلاحون المهاجرون من حمل الاخشاب معهم لبناء هذه المنازل الجميلة . ومن أهم قرى العصر الحجري المعروفة هنا قرية كولن — ليندينثال Koln - Lindenthal بالقرب من كولونيا ، وإلى

الشمال الغربي من حدود انتشار الدانوبيين حيث وجد هناك عدد من المنازل المحمية بواسطة حفر دائرية محاطة بحواجز خشبية .

وقدكانت هذه القريةمثل مجتمعات دنوب ١ مكتفيةذاتياً تماماًرغم انهم ربما — احضروا من مناطق بعيدة الاحجار الصلبة اللازمة لعصيهم المعقوفة ولمخارزهم وفؤوسهم . وقد وجدت ايضاً تجارة بسيطة في ادوات الزينة ولا سيما اصداف البحر الأبيض المتوسط التي حملت من بحر أيجة أو الادرياتيك نحو الغرب حتى وصلت إلى اراضي الرين . كما وجدت قطع من العاج الأفريقي اشتراها أحد الاهالي بالقرب من فورمز Worms بالمانيا . وعدم وجود منازل للحكام ومقابر للاغنياء أمر يوحي بأنه مجتمع متساوي Egalitarian . ويعتقد دائماً أن الدانوبيين كانوا جماعات مسالمة رغم أن الاحجار الفخمة التي استخدمت في صناعة رأس الدبوس ووجدت بينهم لا يعتقد أنها استخدمت دائماً في أغراض الاحتفالات .

ومن الناحية الجنسية سواء كان سكان الدانوب قد قدموا كأبة من الأناضول أو من بعض أقاليم البحر المتوسط المجاورة كما يوحي بذلك تكوينهم الطبيعي وصناعة الفخار التي بها اصداف من البحر المتوسط ، أو سواء أنهم يمثلون إنتشاراً من سكان فاردار — مورافا ، أو يتضمنون أصلا حضارياً حديثاً إلا أن بقاياهم غير معروفة . وعن طريق التحاليل الكربوني اعطى تاريخ ٤٢٢٠ ق.م. لاحد المواقع في غرب أوروبا (مجد لبرج بالمانيا) . وبكل تأكيد كان هذا الفلاح الدانوبي أول من قاد قطعان الماشية والاغنام ونشر الزراعة المتنقلة في الأراضي الاطلسية الرطبة في غرب أوروبا . وهكذا لم يمض وقت طويل حتى اصبحوا جيراناً لمجموعتين أخرتين من العصر الحجري الحديث احداهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب منهم .

والجماعات الاخيرة تنتمي إلى اصحاب حضارة العصر الحجري الحديث

الغربيين الذين سبق ذكرهم ويشتملون على عنصر أفريقي واضح . وبالتأكيد كان هناك صلة قوية بين فخارهم الضخم غير الملون وبين التقاليد المصرية في العصر الحجري الحديث . ويبدو أنهم وصلوا إلى غرب البحر الابيض (اسبانيا . وجنوب فرنسا وشمال أيطاليا) في فترة متأخرة عن محلات «الفخار المميز Impressed pottery» . واندفعوا بعد ذلك نحو الشمال والغرب على طول طريقين . أحدهما من جنوب فرنسا إلى وادي الرون والأخر طريق بحري إلى سواحل المحيط الاطلسي في شبه جزيرة أيبريا وفرنسا وايطاليا.

أما فيما وراء جبل طارق فلا بد وأن الانتشار على الساحل كان أكثر خطورة حيث كانت هناك صعوبات تعترض الملاحة . وبدون شك لا بد وأن بعض سكان السواحل العاصفة في غرب وشمال الجزر البريطانية كانوا ملاحين مغامرين . ومهما كان الأمر فحتى في هذا الاقليم انتشرت المحلات تدريجياً على طول السواحل حيث تمكن السكان من الاستقرار في بعض المناطق الصالحة والتوغل عن طريقها نحو الداخل .

ومن بين أفضل واقدم نماذج حضارة العصر الحجري الحديث الغربية ذلك الذي وجد في مقاطعة الميريان Almerian في جنوب شرق أسبانيا . هذا الركن من شبه الجزيرة سكنة بالتأكيد غزاة جدد ذوو حرف وطرق حياة متصلة كثيراً بتلك الموجودة حينئذ في مرمدة والعمره بوادي النيل . ورغم عدم تتبع انتشارها (١) . إلا أنه يبدو أننا هنا أساسا أمام جماعات إفريقية الأصل . وربما اختلطت بهؤلاء الشعوب التي انتشرت على طول البحر المتوسط.

وقد عاش هؤلاء الالميريانيون في قرى مكونة من اكواخ بيضاوية ، ارضيتها غاطسة عن سطح الأرض ومسقفة بالحصر والطين . وقد ربوا — كالعادة — قطعان الماشية والأغنام وزرعوا الحبوب وخزنوها في حفر صغيرة . وكانوا

(١) توجد بعض الآثار على طول الساحل الشمالي الأفريقية .

اول أناس عرفوا زراعة الزيتون في غرب البحر الابيض المتوسط ، ذلك النبات الذي أصبح جزءاً أساسياً من المظهر الطبيعي . ويبدو أيضاً أنهم قاموا بجمع العنب البري ، وعرفوا كيف يغزلون وينسجون ، كما أن وجود الفؤوس الحجرية والفخار والبلط بينهم أمر يوحي بأنهم كانوا عمالا مهرة في قطع الأخشاب ولا بد أن نذكر ان أشجار الزان ما زالت موجودة حتى الآن في تلال جنوب اسبانيا .

هذا وقد ذكر بعض الشيء عن حضارات العصر الحجري الحديث الغربية التي مثلت الطلائع الأولى لوصول جماعات الفلاحين إلى معظم غرب أوروبا . فقد ظهر مجهود لا بأس به في صناعة الفخار على أشكال توحي بأن هؤلاء الفلاحين كاصحاب الحضارة الألميريانية تأثروا كلية بالمصريين . وفي الحقيقة يبدو أن محلة الميريان — من ناحية الشكل العام — ما هي إلا مرحلة على الطريق من أفريقية إلى الغرب.وفي كثير من المناطق استقبلت هذه الحضارة حضارات محلية متأخرة نسبياً ، لا تزال توجد أثار منها في مقاطعة الميريان حيث تنتشر في شرقها وفي الاراضي المنخفضة الطباشيرية في الشمال . وحتى في هذا المناخ القاسي نسبياً نلاحظ أن القرى المحصنة ذات الاكواخ البيضاوية الغاطسة تحت الارض ، وكذلك نظام الزراعة المختلفة لم يختلف عن المنطقة المحيطة بالجارسيل El Garcel حيث كانت تقاليد العصر الحجري المتوسط أكثر مقاومة هنا . ولكن بالنسبة للصفات الأساسية لطريقة الحياة الخاصة بالجماعات الغربية في العصر الحجري الحديث نجد في غرب سويسرا مثلا حياً حيث عمرت هناك بأعجوبة بقايا قرى بنيت على جانب البحيرة . وكانت عبارة عن منازل خشبية صغيرة قليلة شيدت على أطراف مستنقعات بعض البحيرات السويسرية . ولا بد وأن مجهوداً مضنياً قد بذل لتطهير الغابات بواسطة الفؤوس الحجرية التي ثبتت في قرون أو وضعت لها أيدي خشبية مستقيمة . وفي هذه الارض الممهدة زرع فلاحو الكورتايلود Cortaillod القمح من نوع Emmer والشعير والبسلة والفول والعدس . واكلوا البرقوق والتفاح ورغم أن هذه

النباتات كانت تنمو أولا برية إلا أنه من المؤكد أن التفاح قد زرع مؤخراً واستخدم في عمل العصير . وقد كانت قطعان الماشية أكثر أهمية لديهم من الخنازير والأغنام والماعز ، وقد قام الفلاحون المهرة بجمع روث هذه الحيوانات وذلك لاستخدامه في الحقول ، ولم يكن للصيد أهمية كبرى ولكن بالطبع لا بد لأناس يعيشون على أطراف الماء من أن يكونوا صيادي سمك ، يستخدمون في صيدهم الشباك وربما أيضاً الرمح . وقد زرعوا ايضا الكتان ونسجوا منه الملابس رغم أنهم كانوا يصنعون ملابسهم الثقيلة من الجلود والفراء .

هذه القرى السويسرية أنزوت بعيداً في أوديتها بالقرب من الكتلة الألبية ، حيث اكتسبت القوة الكاملة للحياة الزراعية ، تلك القوة التي حملتها إلى مناطق مختلفة تماماً في طبيعتها عن مناطق نشأتها الأولى المشمسة ، ويستطيع الفرد أن يتصور الرواد الأول وهم قادمون ومعهم حيواناتهم القليلة وسلال بذورهم . يقطعون الأشجار على طول أطراف البحيرة ، ويطهرون في الحال قطعة أرض ثمينة ثم يؤمنون أنفسهم برفع منازلهم فوق الطين . ومن ثم فمن الممكن في خلال سنوات قليلة أن ترعى الماشية والأغنام في نفس المكان الذي كان قبل ذلك مرتعاً لحيوانات البرية ، ومن الممكن أيضاً أن تنمو المحاصيل في مكان الغابات ، وأن تقضي عدد من الأسر أوقاتها في الزراعة في المكان الذي كان لا يستطيع الإنسان فيما سبق عمل شيء أكثر من أن يفقد رمحه أو سهمه أو ينصب فخاً .

وحضارة العصر الحجري الحديث الغربية — كما ذكرنا سابقاً — حملت إلى الأراضي المنخفضة في شمال فرنسا ، وايضاً إلى مناطق متفرقة في فرنسا وأيبريا ؛ وإن كان من الصعب تمييزها في أشكالها الأولية . وقد وجدت إحدى حضارات العصر الحجري الحديث الغربية النقية في بريطانيا . ويظهر هنا مرة أخرى دليل على أن الفلاحين الأوائل حينما وصلوا إلى تلك البلاد وجدوها في سيطرة صيادي العصر الحجري المتوسط — أحفاد الساوفيترين

والمجلوميزين Maglmoslans . هؤلاء القادمون الجدد الذين Sauvetterrians يطلق عليهم اسم سكان طواحين الهواء التلالية Wind-mil Hill People لا بد وأنهم أحضروا معهم الماشية والحيوانات في قواربهم قبل أن يستقروا أولا فوق التلال الطباشيرية في جنوب انجلترا تلك التلال التي غطت بقليل من الغابات . وقد استخدموا العصي المعقوفة في زراعة قطع من الأرض قمحاً وشعيراً وربوا الأغنام والماعز والخنازير غير أن الماشية كانت هي همهم الرئيسي وكانت قوية تمتاز بالقرون الطويلة وربما كانت نتيجة لاختلاط أنواع برية محلية Wild Aurochs .

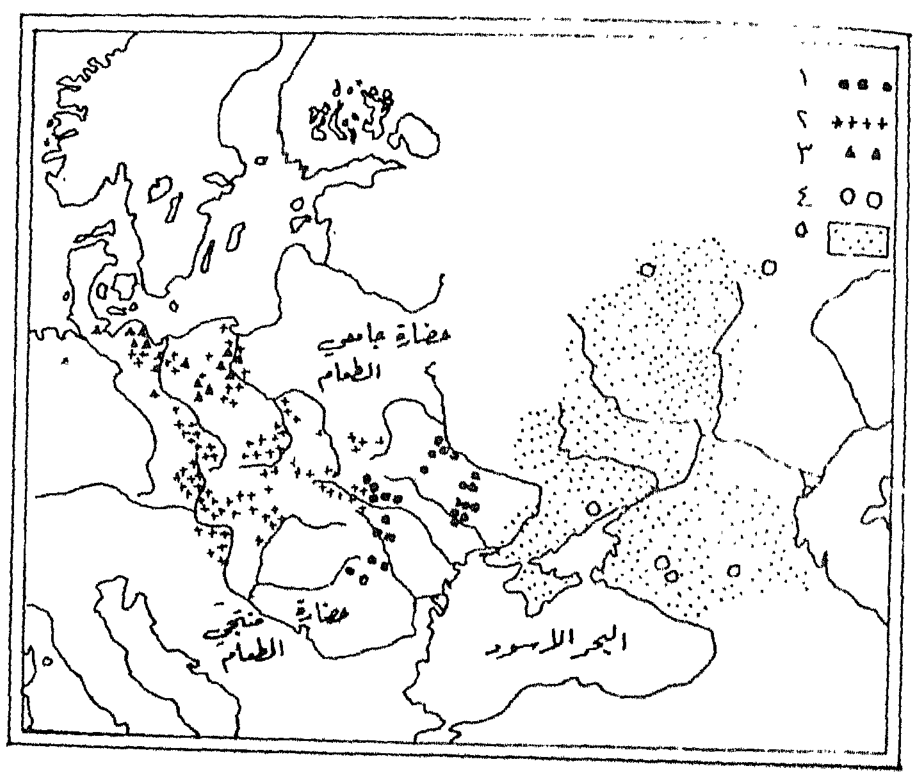
أما عن أوانيهم فقد كانت بسيطة مصنوعة من الجلد . وهذا شيء محبب لأصحاب حضارة العصر الحجري الحديث الغربية . ومن العجيب أنه لا يوجد دليل على أنهم مارسوا صناعة الغزل والنسج . وكان الصيد عن طريق القوس والسهم غير أنه كان قليل الأهمية في اقتصادهم . وقد عرف سكان الطواحين الهوائية التلالية في بعض الاحيان بأنهم عاشوا في منازل مستطيلة منعزلة بينما سكان البحيرة في كمبرلاند الذين يذكروننا بالقرى السويسرية صنعوا جسوراً متعددة ، ويبدو أنهم كانوا يستعملونها في رعي الماشية في فصل الخريف وليست كقوى دائمة . وقد وجد باستمرار في معسكرات ومقابر سكان الطواحين التلالية تماثيل مجردة لآلهة الخصوبة لتحدد أقصى امتداد غربي لهذا الاعتقاد الذي ميز مجتمعات المزارعين الأوائل .

أما عن تاريخ انتشار حضارات العصر الحجري الحديث الغربية فليس هناك اتفاق بشأنه حتى الآن ، ولكن عدداً غير قليل من تقديرات التحليل الكربوني ١٤ يوضح أن كلا من فرنسا والجزر البريطانية قد عمرت بكثافة قبل الألف الثالثة ق.م.

ولقد ذكرنا من قبل أنه عقب توغل أصحاب هذه الحضارة نحو غرب أوروبا ، أصبح الدانوبيون المتأخرون جيراناً للزراع الغربيين إلى جانب

أن انتشاراً أخر لحضارة العصر الحجري الحديث اتجه إلى أقصى الشمال .

ولقد اعتقد منذ زمن طويل أن اسكنديناوة ظلت في أيدي Ertebolle وغيرهم من صيادي العصر الحجري المتوسط إلى أن وصل إليهم أناس من الغرب يمتازون بالفن المعماري الميجاليثي . على أي حال فقد ثبت الآن أن جماعات المزارعين تقدموا إلى كل من الدانمارك وجنوب السويد قبل ذلك ، وانهم جاءوا من اتجاه جنوبي شرقي شكل (٦) .



شكل (٦) ــ الزراعة وجمع الطعام في شمال أوروبا

١ ــ توزيع فلاحي تروبلي .

٢ ــ الانتشار الشمالي الشرقي لفلاحي الدانوب ١ .

٣ – توزيع بداية الحضارة الشمالية الأولى .

٤ – مواقع حضارة العصر الحجري الحديث وبداية عصر النحاس في اوكرانيا .

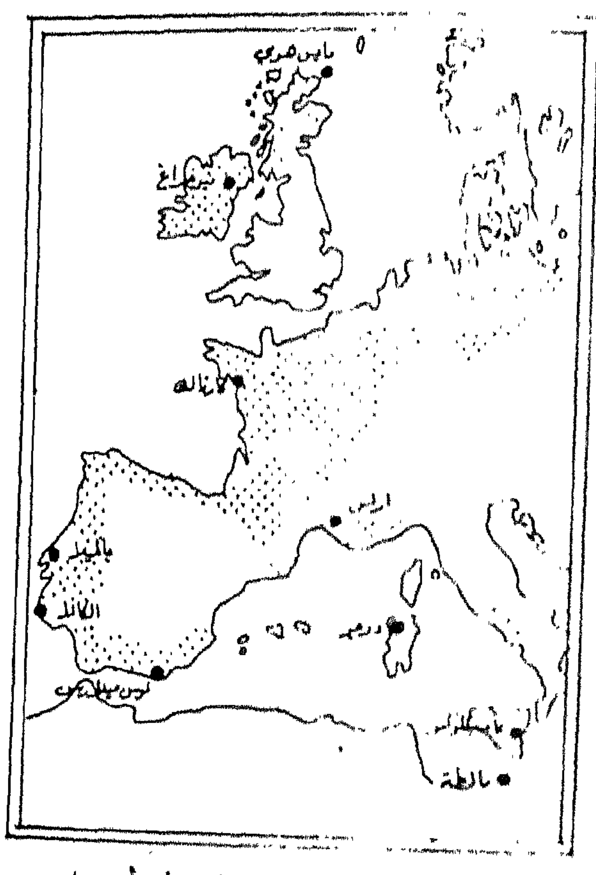
٥ – توزيع حضارة العصر الحجري الحديث للبونتيات الشمالية والقوقازيين الشماليين .

وربما قطن هؤلاء التريشير بشيرون Tricherbecher People (الحضارة الشمالية الأولى) أولا الجزء الشرقي من نطاقهم في ثورينجيا Thuringia وبولنده ووصلوا إلى الدانمارك والسويد حينما وصل المزارعون الأوائل إلى بريطانيا قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. ويعرف عن هؤلاء أنهم عاشوا في بعض الأحيان في منازل طويلة جمعت فيها عدد من الأسر ، وفي شرق جتلند وجد أحد المساكن الجماعية التي بلغ طولها حوالي ٨٥ متراً. وقد مارسوا الزراعة المختلطة العادية القائمة على زراعة الشعير وعلى زراعة ثلاثة أنواع من القمح Einkorn & Club & Emmer وكجماعات طواحين التلال كانت ماشيتهم دعامتهم الأساسية . ومنذ البداية اعتمدوا على قليل من الصيد في سد حاجاتهم من الضأن ولحم الخنزير . ويوجد دليل قوي يبين أن هؤلاء القادمين الجدد استخدموا الفأس والنار في تنظيف الغابات وإعدادها للرعي والزراعة .

ولا يوجد أي مكان يظهر فيه بوضوح كالدانمارك تأثير الزراع القدماء على أهالي العصر الحجري المتوسط الأصليين . فجماعات Tricherbecher جاوروا بدون شك جماعات الصيادين الايرتيبولبيين لعدة قرون . وقد كان هناك نوع من الاتصال بين الواحدة والأخرى إذ أن بقايا تنتمي لحضارة العصر الحجري الحديث وجدت في ركامات الايرتيبولي . وعلى أي حال فقد حافظ السكان الاصليون على اقتصادهم الأكثر بدائية ولم يغيروه البتة . والشيء المفيد – الذي يمكن أن يحدث في أماكن أخرى في الاقاليم الغابية هو أنهم كانوا بالفعل ناجحين في فترة من الزمن ، حيث زادت أعدادهم وانتشروا

حولات جديدة . وربما تطهير جزء من الغابة أعطى ظروفاً ملائمة لتربية الوعل الأحمر الذي اعتمدوا عليه كثيراً في الحصول على اللحوم . ولم يكن هناك أي نزاع بين السكان الأصليين إلى أن قدم السكان الزراعيون . واصبحت أعدادهم كثيرة ، وحينئذ اختفت حضارة الصيد كما انقرض أصحابها أو هاجروا بالتدريج ولاءموا أنفسهم لطرق الحياة الجديدة . وهذا لم يحدث إلا في منتصف العصر الحجري الحديث الشمالي .

وعلى الرغم من أن التحركات الثلاثة الهامة التي أحضرت أصحاب حضارات



شكل (٧) الحضارة الميجاليثية في أوروبا

العصر الحجري الحديثة الرئيسية بواسطة البر والبحر إلى أطراف أوروبا قد نوقشت إلا أنه لا بد من ذكر كلمة عن انتشار الفن المعماري الميغاليثي وأشكال المباني الأخرى القريبة الصلة به . (شكل ٧) .

هذا الفن المعماري وجد على طول الطريق من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى جزر اوركني وشتلند واسكنديناوة . وتوزيعه على السواحل يوحي بأنه انتشر عن طريق ملاحين . ولم يكن هذا الفن ظاهراً في بداية حضارات العصر الحجري الحديث ، ولكن على أي حال فقد أخذ بهذا الفن في معظم غرب وشمال أوروبا في فترة متقدمة نسبياً ولم تأت نهاية الألف الثالثة ق.م. إلا وكان هذا الفن أهم ظاهرة لديهم . وأكثر من ذلك فمن المفيد في تاريخ الحضارة أن نعطي مثلا بدائياً لإنتشار الأفكار الدينية على النقيض من حالة السكان الفعلي الذي تعرضنا إليه فيما سبق .

وهذا الفن المعماري أساسه جنائزي رغم أن أنواعاً أخرى ظهرت مؤخراً مثل معابد مالطة ومذابح بريتاني وبريطانيا . إذ أنها تحمل معتقدات الموت الذي كان له معنى ديني واسع ، فيجب أن ننظر إليه على أنه أكثر من مجرد بناء قبور . وربما ظهر هذا الفن ليصاحب ديانات آلهة الخصوبة التي تظهر صورها وشعائرها على المقابر في أكثر من أقاليم . فقد جسدت المقابر الصخرية فكرة عودة الميت إلى الأم (١) لأجل ميلاده من جديد .

ومن الصعب أن نحلل بشيء من التفصيل الأنواع المختلفة من الرسومات والنماذج التي استخدمت في بناء هذه المقابر أو نناقش تواريخها النسبية . فبعض الأنواع التي انتشرت انتشاراً واسعاً مثل الممرات الدائرية الصغيرة . والمداخل ، والفناءات التي شيدت لأجل شعائر دينية تستخدم لغرض إعطاء نوع من الوحدة بها جميعاً . ويظهر بين البعض الآخر اختلافات معينة (وعلى

---

(١) يقصد بالأم هنا الأرض — المترجم

وجه الخصوص في التخطيط) توحي بتقسيم المبنى إلى أجزاء ويشبه ذلك إلى حد كبير الاختلاف الموجود في تخطيط الكنائس المتعددة التي تميز الاقسام المختلفة للكنيسة المسيحية . وتمثل مقابر سيكلاديس وكريت التي تبدو على شكل عش النحل أقصى مثل شرقي لهذه التقاليد اللهم إلا إذا أدخلنا ضمنها المصطبة المصرية التي ليست عامة في كل المقابر والتي ربما كانت عنصراً وراثياً منها . وتوجد مقابر مشابهة لها تماماً في صقلية . ولا بد وأنها تقع خارج نطاق الشكل العام الذي يميز المقابر الميجاليثية « المقابر ذات الممرات » . وقد كانت عبارة عن حجرات دائرية بصفة عامة يصل إليها الفرد عن طريق ممر ضيق مغطى في الغالب بتلال كبيرة دائرية أو مستطيلة لكي تجعله ثابتاً ومميزاً . وقد بنيت هذه في جنوب أسبانيا والبرتغال وفي بريتاني وويلز وايرلندة واسكتلنده والجزر الشمالية وفي الدانمارك والسويد . ورغم أن الأمثلة الأيبرية كافية جداً لبيان هذا النوع من القبور إلا أنه لا يوجد شيء أجمل من المقابر ذات الممرات الكبيرة الملهمة بالنقوش في وسط ايرلندة وتلك التي توجد في مناطق نائية في جزر اوركني ؟ ؟

والشكل الثاني المميز للمقابر هو المقابر ذات البهو المتوازي Parellel-gallery grave الطويل الضيق الذي يوجد في جنوب غرب اسكتلندة (وفي فترة متأخرة الدانمارك والسويد) . والمقابر ذات البهو تشمل أنواعاً متخصصة غريبة مثل القبور « العملاقة » Giants Graves في سردينيا والمقابر « Navotos » الضخمة جداً في مينوركا Minorca .

وعلى الرغم من أن الاشياء التي دفنت مع الميت هنا وهناك في نطاق توزيع هذه المقابر الكبيرة توحي على أنها أدخلت عن طريق غزاة إلا إن السكان المحليين في أغلب الظن أخذوا هذا التغير الجديد وشكلوا جزءاً من حضارتهم . وهكذا يبدو أنه من الأفضل الافتراض أن اعتناقهم لهذه الحضارة يرجع إلى انتشار أفكار دينية معينة وممارسة طقوسها ، غير أن توزيعها على الساحل واقتصارها على مناطق معينة في أجزاء منعزلة تجعلنا نعتقد أن الأفكار والمعلومات

الّتي أُدخلت على نظام مبانيهم ربما حملها اليهم المبشرون الذين كانت أعدادهم قليلة ولكن تأثيرهم قوي . ففي أي محاولة لتتبع انتشار طريقة الحياة الجديدة من الشرق المتحضر إلى الغرب المتبربر لا بد وأن نضع صورة المجتمعات البسيطة للفلاحين التي تندفع ببطء نحو الأمام طالبة الأرض إلى جانب صورة أفراد — ربما كانوا في الغالب أصحاب حضارة أرقى — يتجولون حاملين معهم الأفكار التي أنارت عقول وتصور السكان الأصليين في أراضي كثيرة ومن ثم غيرت معتقداتهم ودفعتهم لتحقيق تطور عظيم .

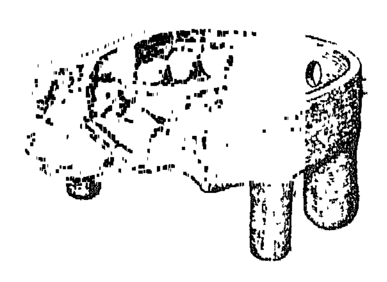
وبعد أن تتبعنا التيارات الرئيسية لحضارة العصر الحجري الحديث من الأناضول وبحر ايجه صوب الغرب . حان الوقت الآن لنبحث عن الأجزاء الشرقية المجاورة . وهناك سوف نجد أن الانتشار كثيراً ما يكون غير مستمر وفجائي كما أن المسافات طويلة . علاوة على ذلك نلاحظ أنه بينما درست أوروبا وعلى وجه الخصوص غربها وشمالها دراسة وافية من الناحية الأركيولوجية أكثر من أي منطقة أخرى في العالم ، فما زالت أجزاء كثيرة من شرق أوروبا وآسيا لم يعرف عنها إلا القليل .

والمنطقة الأولى التي تأثرت مباشرة بنفس مصادر البحر الأيجي والبلقان والتي تقع وراء الانتشار الدانوبي هي الأراضي السوداء الّتي تقع بين الكربات والدنيبر . هذه أرض غنية وفي أجزائها الغربية ولا سيما في أقليم الدانوب الأدنى كان فلاحو العصر الحجري الحديث — بحضارتهم التي تدين لسكان فاردار — مورفا أكثر من الدانوبيين — زراعاً مستقرين استطاعوا أن يقيموا في قرى دائمة . ففي جنوب رومانيا وشمال شرق وجنوب بلغاريا يوجد عدد من التلال تبين مواقع هذه الأكواخ التي عمرت طويلا ، وبعضها مثل تل كارانوفو Karanovo في نوفازاجرا Nova zagra تظهر سلسلة من محلات الفلاحين الذين اعتمدوا على الزراعة المختلطة وكانوا يعيشون في منازل مستطيلة مزودة بأفران من الطين ، والرحى ، وفي بعض الاحيان بحفر لتخزين الحبوب ، ولكن بعض الاختلافات ولا سيما في صناعة الفخار كانت كافية جداً لتوحي

بقدوم حضارة جديدة. وفي الوقت الذي نصل فيه إلى حضارة بويان Boian Cultuer المعروفة نجد أن النحاس قد استعمل في بعض أدوات الزينة الصغيرة . على أي حال فما زال الأساس الاقتصادي للعصر الحجري الحديث يعتمد كلية على زراعة القمح والذرة رغم أن الصيد ظل مورداً هاماً للحوم . وقد عاش القرويون في منازل مستطيلة متينة بنيت من غصون الأشجار .

وقد استقر بالقرب من البويان جماعات في ترانسلفانيا وسموا انفسهم باسم الاوليتان Oltenians نسبة إلى نهر أولت Olt ، وقد عرفوا تماماً من قرية Erosd . وقد عاشوا في منازل ذات مدخل مسقوفة « شرفات » من طراز ميجارون Megaron type ، وزودت بأفران طينية على شكل قباب وزينت أسقف أسطحها بما يشبه القلاع . وقد استحقوا الثناء على فخارهم المطلي البديع الذي لا يعتبر فحسب من ادق الأواني الفخارية في كل شرق أوروبا وجنوب روسيا، ، بل ايضاً من افضل منتجات الفن المزخرف في العصر الحجري الحديث . وهذه الأواني والقدر المزخرفة لم تكن من صنع عمال محترفين بل يبدو دائماً أن كل أسرة كانت تصنع لنفسها حاجتها وكل واحدة تعمل مع عشيرتها .

وقد كانت حضارة أولتينيان مقدمة لحضارة أوسع وهي حضارة تريبولي Tripolye culture التي تمثل انتشاراً واسعاً للفلاحين صوب الشرق ، حيث استطاعوا في وقت ما أن ينتشروا فوق السهول إلى الشمال من البحر الأسود وحتى نهر الدنيبر . ففي هذا النطاق المتسع كانت الزراعة متنقلة ولم تسمح للقرى أن تقوم باستمرار . على أي حال فمن المحتمل أن البعض قد عاش فيها لفترة جيلين على الأقل ، أي لفترة أطول مما كان ممكن بين الدانوبيين . وفي هذه الأراضي الخصبة كانت القرى منتشرة بكثافة كما كان السكان مزدحمين . وقد وجد نموذجاً من طين لمنزل في تريبولي يوضع الصورة التي كان عليها داخل المنزل (شكل ٨) : فحجرة المعيشة Living Room ، كما هو الحال في كل المنازل المبنية على خطة ميجارون وضع أمامها حجرة



شكل (٨) ــ منزل من العصر الحجري الحديث ينتمي إلى حضارة تريبولي .
وهو نموذج فخاري عثر عليه في أوكرانيا

استقبال أو مدخل مغطى ، وزودت بفرن مخروطي كبير ووضع فوق الموقد عدد من القدر الضخمة لتخزين الحبوب . وفي أحد أركان الحجرة توجد الرحى باحجارها الثقيلة . ويوضح النموذج أيضاً ربه البيت في العصر الحجري الحديث وهي منحية ومشغولة بالتأكيد في عمل هام ربما طحن الدقيق لأسرتها .

وفي الواقع تمكن سكان تريبولي من زراعة ثلاثة أنواع من القمح وهي العريض و Club و Einkorn ذلك بالاضافة إلى الشعير والذرة والشيلم ، كما ربوا الماشية وابقوا على بعض الأغنام والماعز والخنازير . وعلى الرغم من وجود هذا الأساس الاقتصادي الزراعي الواسع إلا أن الصيد البري استمر يمثل عنصراً هاماً في غذائهم فقد عاد الصيادون إلى منازلهم بالوعل الأحمر والحلوف والأوز . وقد اصطادت هذه الجماعات أيضاً الأسماك بالشباك وجمعوا محارها .

وقد كانوا صناع فخار مهرة مثل الاوليتانون إذ صنعوا منها أشكالا كثيرة متنوعة وجميلة ، وطليت في الغالب على شكل خطوط حلزونية رفيعة لتعطي انسجام جميل بين ألوان متعددة « الأسود والأبيض والأحمر » . وقد وجد نمط هذا الرسم ايضاً في تماثيل السيدات التي توضح أن سكان تربيولي ينتمون إلى المعتقدات العامة للعصر الحجري الحديث الخاصة بآلهة الخصوبة .

ويمكن أخذ حضارة تريبولي على أنها أقصى توسع شرقي لطريقة الحياة الرئيسية للعصر الحجري الحديث التي جاءت مباشرة من نفس المصادر التي دفعت لانتشار الدانوبين نحو الغرب وفيما وراء هذه المنطقة في أقليم البونتيك Pontic حيث كان عدد سكان العصر الحجري المتوسط كبيراً . ويبدو أن اقتصاد الصيد البري والبحري القديم عمر إلى أن بدأت تصل إليه بعض التأثيرات الحضارية لامن الغرب وإنما مباشرة من الحضارات الشرقية القديمة في العراق وأيران . فالمقبرة الكبيرة الجماعية التي عثر عليها على بحر أزوف والمقبرة الأخرى الموجودة في وسط القوقاز تحتوي كل منها ما يزيد على ١٢٠ من الجثث . وهذا عدد يوحي بوجود اقتصاد انتاج الطعام غير انه لا يوجد أي دليل ايجابي على الزراعة وتربية الحيوان . والأشياء المصاحبة لهؤلاء الموتى توضح أن هناك اتصالات تجارية مع العراق ، غير أن هذا الاتصال أصبح أكثر وضوحاً في الحضارة الأولى لكوبان Kuban التي عرفت أساساً من المقابر ذات المحتويات الفاخرة المغطاة بتلال كبيرة . هذا وقد ذكر البعض أن هذه المقابر المميزة ربما توضح العلاقة جيداً بين جامعي ومنتجي الطعام عن طريق وكلاء أو وسطاء من الحضارة الشرقية الباحثين في هذا الاقليم عن النحاس والذهب والفضة لسد مطالب المدن العراقية .

وهنا للمرة الثانية رغم أن البعض قد احترف الزراعة إلا أنه ليس هناك دليلاً على ذلك إذ أن الاقتصاد القديم لا بد وأنه استمر على الأقل يساعد الأفراد الذين كانوا يشترون الأدوات والأسلحة النحاسية ، والأواني الذهبية والفضية من الشرق ، والذين خضعوا لرؤساء كان يجلسون على مقاعد محلاة بكتل من الذهب والفضة . وعلى الرغم من أن بعض الباحثين أرجعوا تاريخهم لفترة متأخرة إلا أنه يبدو أن تلال كوبان من نفس عمر المقابر الجماعية الضخمة التي ربما نشأت قبل الألف الثانية ق.م.

وتتصل حضارة فاتيانوفو Fatyanovo culture بالحضارة البونتيكية وإن قامت الأولى على أساس زراعي إذ كانت أول حضارة أحضرت زراعة الحبوب وتربية الماشية إلى النطاق الغابي في وسط روسيا . وتعرف هذه على

وجه الخصوص من حوض الاوكا Oka والفلجا الأعلى والأراضي المرتفعة المحيطة بها . هذا وقد افترض البعض أن أصحاب هذه الحضارة كانوا من الجماعات المحاربة ، اهتموا بركوب الماشية قدر اهتمامهم بتربيتها . وقد كان الاعتقاد السائد أولا أن الانتشار الأول لطريقة حياة العصر الحجري الحديث إلى أطراف غابات أوراسيا الواسعة قد جاء من الغرب عن طريق وسط وشرق أوروبا . ولكن الرأي الحديث هو أن أصحاب حضارة فاتيانوفو قد توغلوا إلى وسط روسيا تحت ضغط الشعوب البونتيكية . أما عن المكان الذي قدمت منه تلك الزراعة والمظاهر الأخرى للعصر الحجري الحديث فليس هناك ثمة شك أن هؤلاء الناس قد انحدروا من صيادي السماك القدماء في العصر الحجري المتوسط وأنهم استطاعوا أن يحتفظوا ببعض تقاليدهم القديمة .

هذا هو الوقت المناسب لنتوقف عن هذا المسح الخاص بانتشار الاقتصاد الرئيسي للعصر الحجري الحديث لكي نبحث مسألة تاريخية على جانب كبير من الأهمية خاصة بأواخر التاريخ الحضاري للعالم القديم وهي نشأة الشعوب الهندية أوروبية . فالفاتيانوفيون مثل البونتكيون برعوا في صناعة فؤوس مهذبة جميلة ، توحي بأنها آلات حرب : فؤوس المعركة Battle axes . مثل هذه الأسلحة قام بصناعتها غيرهم من الشعوب بما في ذلك مؤسسي الحضارة الشمالية Northern Culture الذين كانوا أول من أدخلوا الزراعة من بولندة إلى الدانمارك والسويد . ويوجد حالياً اتجاه لتوسيع مدى انتشار حضارة فأس المعركة بإدخال ميشيلسبرج Michelsberg في بوهيما وألمانيا وسويسرا ضمن هذا النطاق رغم أن البعض ينظر إليهم حتى الآن على أنهم ينتمون إلى تقاليد العصر الحجري الحديث الغربية . ففي بداية الألف الثانية ق.م. عندما بلغوا أوج اتساعهم كانوا يحتلوا منطقة واسعة بين الفلجا وبحر الشمال . وفي الواقع لا نجد موضوعاً يختلف فيه الباحثون تماماً مثل مراكز نشأت هذه الحضارات . والسبب في ذلك هو أن الباحثين اتفقوا على نقطة واحدةوهي أن فأس المعركة تمثل جذور الجماعات المتحدثة باللغة الهندية أوروبية ، تلك

الجماعات التي كان لهجراتها الكبيرة أثراً واضحاً على تاريخ العالم . وهكذا تجعل بعض المدارس منبتهم الأول في شمال أوروبا حيث اندفعوا من هناك نحو الشرق ، وآخرون يعترضون على هذا التحرك ، وترى مدرسة أخرى أنهم تطوروا بدون هجرة كنتيجة لتأثير الاقتصاد الزراعي الدانوبي على مجتمعات الصيد .

غير أنه من المستحيل أن نصل إلى نتيجة نهائية في الوقت الحاضر . وربما التعرف على أساس قديم لحضارة العصر الحجري الحديث تحت التطورات المحلية لحضارات فأس المعركة في المنطقة الممتدة من اسكنديناوة إلى ايرلندة ربما يؤدي إلى فهم أكثر للمسائلة التي نحن بصددها . ولا بد من ذكر أن الأدلة الحالية تؤيد قدوم هذا الأساس التقليدي من الشرق وربما من جنوب روسيا . على أي حال لا يمكن أن نتجاهل الرأي القائل بأن الدانوبين قد ساهموا بجزء في هذه الحضارة . والشيء الوحيد المؤكد هو أن أصحاب فأس المعركة قد ورثوا لدرجة كبيرة التكوين السلالي والاجتماعي والحضاري لصيادي سمك حضارات الغابات مثل المجلموزية والكوندا Kunda . وسواء استطاعت هذه الجماعات البدائية أن تقتبس ببساطة اقتصاد العصر الحجري الحديث من جيرانهم ، أو استطاعوا الوصول إليها عن طريق طبقة حاكمة جاءت من البونتيكين أو الدانوبيين ، فإن الصفات الموروثة المشتركة تعطيهم نوعاً من الوحدة وتميزهم بحدة عن الدانوبيين وسكان البحر الأبيض المتوسط واصحاب حضارة العصر الحجري الحديثة الغربية . ورغم أن ذلك لم يكن بصفة دائمة ولم يكن في كل الأماكن إلا أنه في وقت من الأوقات كانت هذه الصفات السائدة هي الرعي ، والنظام الأبوي ، والحرب ، والترف .

ولم يبقى الآن إلا دراسة الانتشار الأول للزراعة شرقي وطنها الأصلي في جنوب غرب آسيا . ففي مسحنا لهذه الأراضي وصلنا فيما سبق نحو الشرق حتى سيالك بايران ، وإلى الشمال الشرقي منها وجد عدد من المحلات الهامة

حول الركن الجنوبي الشرقي من بحر قزوين (مثل حيسار Tepe Hissar)
واناو Anau في تركستان الروسية ، وناماسجاتيبي Namasga Tepe في أقصى
الشرق من المواقع السابقة . ويرجع تاريخ هذه المدن الصغيرة والقرى إلى
الألف الرابعة ق.م. وربما إلى أقدم من ذلك . ومن هناك تسللت المجتمعات
الزراعية ببطء أو بسرعة ناحية بلوخستان وأقليم السند . وتحدد التلال مواقع
محلاتهم على طول أحد جانبي الصحراء الوسطى ، على طول الجانب الشمالي
وفيما وراء أوديه سلاسل البرز ، وعلى الجانب الجنوبي في فارس Fars (١)
ومكران . وقد وجدت اختلافات حضارية بين سكان الشمال والجنوب حيث
ظلت هذه الاختلافات موجودة إلى حين التقوا في بلوخستان.وهناك تتجمع
قرى الفلاحين بكثافة فوق الأراضي المرتفعة غربي السند . وفي مكان بالقرب
من Quetta يوجد أثار لمحلة قبل صناعة فخار العصر الحجري الحديث
ويبدو في مكان أخر في وادي زوب Zhob أن المحلة الأولى كانت لإناس
نصف رعوين يهتمون برعي الخيول والحمير وماشية الزيبو zebu والأغنام .
ولكن في معظم المواقع كانت الأواني المدهونة بدقة تمثل حلقة الوصل بين
فلاحي الهند وفلاحي أيران والعراق .

وكما هو متوقع توجد صلات قوية مع غرب أيران ولا سيما مع حيسار .
غير أن العنصر المحلي كان قوياً ولم يقتصر ظهورة فحسب في الفن والحرف
ولكن ظهر أيضاً في الحيوانات المستأنسة والنباتات . وعلى الرغم من أننا
لا نعرف إلا القليل عن الأنواع التي ربها الفلاحون الهنود إلا أنه لا بد وأن
ماشية الزيبو كانت من الأنواع الأولى التي ربيت لأن سلالته كانت معروفة
بالهند منذ زمن طويل وربما كانت نتيجة لإستئناس حيوانات محلية . ويمكن
مقارنة ماشية الزيبو — مع التناقض من حيث العدد — بماشية بريطانيا في أقصى
الطرف الغربي للانتشار الأساسي لحضارة العصر الحجري الحديث والتي نتجت

(١) ايران .

من جراء اختلاط أنواع برية محلية : ويبدو بالتأكيد أن هذه القرى المرتفعة كانت مصدراً لحضارات المدن الكبيرة في سهل السند قبل ذلك بعده الآف من السنين ، تلك المحلات التي تقع على بعد ألف ميل إلى الغرب من قرى الفلاحين الأصليين الموجودة فوق التلال التي تقع خلف حضارات وادي دجلة والفرات . وإذا كان بعض هذه القرى أو المدن قد عمرت حتى الألف الثالثة ق.م. فلابد وأن هناك اتصالات تجارية بسيطة بينها وبين هارابا Harappa حيث اهتمت المجتمعات الموجودة بها باستمرار بالمواطنين الأكثر ثراء والذين يقطنون المناطق السهلية تحتهم . ولا بد أن ننظر إلى قرى المرتفعات على أنها مقدمة لحضارات السند الراقية ، ونستطيع أن نتصور من بين الرواد الأول من استطاع أن يقود جماعة من اتباعه ويذهب إلى الاستقرار في سهل متسع مليء بالأدغال . وربما نشأت حطام القرى والمدن الصغيرة الموجودة في سهل السند كنتيجة لهذا النوع من الاستعمار . ومن ضمن هذه القرى كوت ديجي Kot Diji التي تبعد حوالي ٢٥ ميلا عن موهانجو–دارو Mohenjo-Daro نفسها . هذه القرية ذات القلعة المحصنة القوية ربما تعتبر نموذجاً لقبل محلات السند Pre-Indus Settlements . فقد مهدت الأرض بواسطة رجال مغامرين من التلال ، نجح بعضهم ، وهزم البعض الآخر بواسطة الفيضان ، وحمى الأدغال ، وصعوبات الري المتقطع ، ثم فكرة التقدم والمدنية والحضارة الأوروبية التي تقدمت بالفعل كثيراً في العراق والتي نبتت هنا بسرعة مذهلة لدرجة أننا نستطيع أن نقول أن حضارة السند تبدو وكأنها ظهرت ناضجة تماماً .

وبالإضافة إلى الأدلة التي عثر عليها في الركن الشمالي الغربي من الهند توجد أدلة قليلة لحضارات العصر الحجري الحديث في أجزاء أخرى من الهند . وبصفة عامة يبدو أن حضارات جامعي الطعام بالآتهم الصوانية الميكروليثية اشتملت على أشكال عامة من العصر الحجري الحديث كالفؤوس المصقولة التي انتهى استخدامها في وقت متأخر جداً .

ومعلوماتنا عن انتشار طريقة حياة العصر الحجري الحديث نحو الشرق

فيما وراء الهند ضئيلة وأي شيء يذكر عنها لا بد وأن يتوقف على الاكتشافات المستقبلة . فقد اعتقد أن حضارة الصينيين ومزارعي بلاد الشرق الأقصى بأرزها وفولها وخنازيرها نمت نموا مستقلا . غير أن ذلك لا يبدو حقيقي رغم العقبات الطبيعية الكثيرة الموجودة والتي وقفت أمام الانتشار، ورغم حاجة الفلاحين لملاءمة حياتهم لمناخ الشتاء الجاف والصيف الرطب . ويبدو أيضاً أن قليلا من المستعمرين اخترقوا بالتدريج كل الحواجز واستطاعوا أن يحملوا معهم إلى جنوب شرق آسيا الزراعة وتربية الحيوان التي قدمت من جنوبها الغربي . وربما كان هناك انتشار واسعاً للاقتصاد الجديد في خلال النصف الثاني من الألف الثالثة ق.م. .

وقد كان محصول الحبوب الرئيسي الذي زرع أولا في الصين هو الذرة الذي كان يعتبر بالنسبة للقمح في الغرب محصولا ثانوياً . وتاريخ الأرز ما زال غامضاً ولكن يعتقد أنه زرع أولا في الهند وأنه حمل بعد ذلك إلى الصين على طريق اليانجتسي حيث لم يصل هناك قبل ٢٠٠٠ ق.م. وأين كانت المنطقة التي زرع فيها ، فهذا الحب بمحصوله الوفير ساعد على زيادة سكان بدرجة لا يضاهيه فيها غيره من الحبوب .

وتوجد مواقع متناثرة في أقاليم كثيرة من الصين ومنشوريا ويمكن وضعها ضمن محلات العصر الحجري الحديث غير أن عمرها وتاريخ انتشارها غير معروف بدقة . وأكثر هذه المواقع عدداً واحسنها معرفة لنا في الوقت الحاضر هي تلك التي توجد في الأرض الصفراء Yellow Earth Land في كانسو ، وشينسي Shensi وشانسي وهونان Honan .

وتظهر حضارة تسي-كيا بينج Ts'i-Kia-P'ing في كانسو التي ربما وجدت في منتصف الألف الثالثة ق.م. وكان أصحابها يصنعون قدراً ذات مقابض. وبالتأكيد قد وصلت هذه الأواني إلى حضارة يانج - شاو Yang-Shao المعروفة التي انتشرت حول المجرى الأوسط للنهر الأصفر . وقد عاش

هؤلاء الفلاحون في منازل صغيرة وفي قرى محمية بأسوار من الطين ، استخدموا العصى المعقوفة في زراعة الذرة وربوا الخنازير . وفي بان بو Pan-P'o في مقاطعة شينسي توجد قرية يانج شاو المكونة من منازل دائرية أو مستطيلة والتي عثر بها على مبنى مستطيل كبير ربما كان ملكاً للحاكم أو كان يستخدم في بعض الأغراض العامة . واعظم ما كان لديهم الفخار الذي من أحسن نماذجه القدرة الضخمة ذات العنق الطويل ، والقاعدة الحمراء المزينة بالطلاء . والرسوم التي ظهرت على هذه القدر كانت على شكل خطوط أو مربعات وقد أخذ هذا الرسم عن Cowri ، وأيضاً ظهرت الأقواس أو الخطوط المتعرجة وكانت مرغوبة في الرسوم . ورغم أن هذا الفخار الملون الذي صنعه فلاحي اليانج – شاو له شخصيته الخاصة إلا أنه قد افترض دائماً أن هناك اتصالا غير مباشر بصناع الفخار الملون في جنوب غرب آسيا .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان من بين الآنية التي عثر عليها بعض الأواني ذات الشكل المميز مثل الآنية التي تقام على ثلاثة أرجل تشبه الثدي ، وربما استخدمت لتسخين مشروب كحولي ، وقد ظهر هذا النوع مع بداية العصر الحجري الحديث وعمر ليظهر ثانياً في عصر البرونز على هيئة Hu ، وهو إناء للاحتفالات كان معروفاً جداً لدى الصينين في عصر البرونز . وهذه الحضارة إزدهرت في الألف الثالثة ق.م. ولا يعرف بالضبط كيف بدأت ، وقد استمرت على الأقل حتى ١٥٠٠ ق.م.

وهناك حضارة حجرية حديثة أخرى – يبدو أنها كانت أكثر تأخراً في تاريخها – أدخلت الزراعة إلى شرق الصين ولا سيما إلى شبه جزيرة شانتنج والسواحل التي على جانبيها : هذه هي حضارة لونج شان Lung-Shan التي عاش أصحابها في صورة مشابهة تماماً لهؤلاء أصحاب حضارة Yang-Shao ، غير أنهم صنعوا فخاراً أسوداً أمتاز بالزاويا .

وهكذا تتبعنا انتشار الاقتصاد الزراعي للعصر الحجري الحديث في العالم القديم حتى أقصى أمتداده غرباً وشمالا وشرقاً من مصادرة الأساسية في جنوب

غرب آسيا وشمال إفريقية . غير أنه في عصْري البرونز والحديد انتشرت الزراعة بطبيعة الحال انتشاراً واسعاً خارج هذه المناطق الرئيسية . رغم أن مناطق كثيرة متفرقة بقي سكانها يعيشون على الجمع والالتقاط حتى وقت حديث . وحتى هذه النقطة التي وصلنا إليها حيث لا بد وأن ينتهي هذا الفصل عند حوالي ٢٠٠٠ ق.م. ، نلاحظ أن طرق كثيرة في وسط وشمال أوراسيا ظلت تسكنها بعض قبائل متناثرة من صيادي السمك . ورغم أنهم أخذوا حقيقة صناعة الفخار واستخدام الفؤوس الحجرية المصقولة من مصادر العصر الحجري الحديث غير أنهم أبقوا على طريقة الحياة القديمة كصيادين متجولين أو كجماعات صيد أسماك أكثر استقراراً . وبعض الجماعات المتطورة من هذة الشعوب عاشت في أقصى المناطق الشرقية من نهر امور وبريموري .

وهنا توجد قرية Tetioukhe وهي قرية مستقرة كبيرة ذات منازل كبيرة وغرف واسعة . وبدون شك قام سكانها بطحن الغلال وباستيراد أدوات الزينة من الصين واليابان وكوريا . وفي الواقع يظهر علاقة بين هذا النطاق نطاق أمور وبين حضارة جومون Gomon في اليابان التي خلقها صيادو السمك . وحلقة الوصل الجغرافية بين المنطقتين السابقتين جزر سخالين التي كان لسكانها في ذلك الوقت صفات مشتركة كثيرة مع هؤلاء الجماعات التي تعيش في حوض نهر امور واليابان . وتوضح حضارتهم أيضاً تأثير الأسكيمو ، وقد اقترح البعض بأنهم ربما كانوا من الناحية الجنسية أجداد الأسكيمو . وبالمثل يرى بعض الباحثين أن أصحاب حضارة الجومون هم أحفاد الأينو باليابان .

أما المجموعات الرئيسية الأخرى من صيادي السمك الذين يمكن تميزهم فهم البايكال Baikal الذين ربما كانوا أجداداً للتانجوس الحاليين ، وأقاربهم جماعات صيادي السمك النصف مستقرين في ياكوتي Yakoutie (١). وصيادو الرنة في الغابات الشمالية ، والسماكون في نطاق التندرا وقد استقر

---

(١) كان لدى بعضهم فن طبيعي .

السماكون في غرب سيبريا ، ولا سيما حول حوض نهر اوبي في منازل جماعية كبيرة متلاصقة . وقد اعتبروا أجداداً للأوجريان . وقد دخلت الزراعة من هذا الأقليم في مرحلة متقدمة نسبياً مع حضارة افاناسيفو Afanasievo التي استخدمت النحاس في بداية الألف الثانية ق.م. .

وقبل أن نترك المناطق الشمالية حيث الظروف القاسية ، والأجزاء المنعزلة عن مراكز التغير أو المناطق التي سمحت لطرق الحياة البدائية أن تعمر فترة طويلة لا بد نلفت النظر إلى أن هناك اضطراداً ملحوظاً في حضارة نطاق الغابات الواسعة الممتدة عبر شمال آسيا وأوروبا . وسكان الغابات يجمعون في العادة تحت اسم جماعات Gomb - pottery people الذين فقدوا وحدتهم خلال نطاقهم الغابي . وكانوا يكونون الأساس للتحركات التقدمية إلى الجنوب منهم في اسكندنياوة وفنلندة وشمال شرق أوروبا وشمال روسيا . وعلى الرغم من وجود جماعات محلية — كما رأينا — ومن وجود اختلافات ترجع في جزء منها إلى اختلاف الفرص التي قدمتها البيئة ، فيبدو أنه كانت هناك تجارة مستمرة . وقد يرى بعض المؤرخين أنه لم تكن هناك تجارة فحسب بين قبيلة وأخرى بل كان هناك تسرب فعلي للسكان من التجار ومغامري الحرب والعبيد . وقد كان هذا التسرب البسيط نحو الغرب من العوامل التي ساعدت على احضار عناصر مغولية إلى شمال شرق أوروبا .

ولتكملة صورة العالم لا بد من ذكر شيء عن نشأة طرق حياة العصر الحجري الحديث في القارة الأمريكية . فمن الممكن أن تكون الفكرة العامة للزراعة قد وصلت إلى العالم الجديد عن طريق العالم القديم ، تماماً كما وصلت فكرة الحضارة المدنية إلى السند عن طريق العراق . وعلى أي حال فحتى هذا استيعاب ضروري بدون معنى إذ ربما استطاعت الشعوب التي أمضت وقتاً طويلاً في جمع الأطعمة من النباتات البرية — والتي أنشأت حضارة العصر الحجري الحديث الغربية — أن تخطوا خطوة الزراعة مستقلة . وبالتأكيد لا بد أن أدوات وطرق الزراعة اكتشفت مستقلا واخترعت في أمريكا ،

فكل أنواع النباتات كانت محلية أما عن القرع Squashes فقد قدم طبيعيا عن طريق التيارات البحرية .

وقد ساد الاعتقاد حتى وقت قريب أن كل الحضارات قد بدأت في الأراضي المنخفضة في أمريكا الجنوبية حيث وجد هناك القمح البري وكذلك المانيك والفول والبطاطا . غير أن الاكتشافات الحديثة قد غيرت هذه الفكرة . فالعثور على بتلات الذرة في حفرة على عمق ٢٠٠ قدم تحت سطح مدينة المكسيك تبين أن الذرة البري ربما من نوع ذات قرن Pod corn هو الاصل البري لزراعة الذرة Zea mays الذي كان ينمو في وادي المكسيك في خلال الفترة غير الجليدية الأخيرة ، على الأقل منذ ٦٠,٠٠٠ سنة مضت .

بالإضافة إلى الذرة فبعض الحبوب الأخرى التي تمثل البداية الأولى للزراعة قد اكتشفت في كهف بات Bat cave بنيومكسيكو . ويعترض على هذه النقطة الاقتراح القائل بأنها ربما كانت معاصرة لحضارة كوشيس Cochise culture بينما لا يبين التحليل الكربوني ١٤ ذلك إذ يرجع تاريخه إلى ٣٤٠٠ ق.م. حتى ولو كان هذا العمر كبيراً فليس هناك ثمة شك في أن أناس بدأوا زراعة الذرة في جنوب غرب الولايات المتحدة منذ فترة طويلة من الزمن .

أما الأدلة المستقاة من أمريكا الجنوبية فهي أضعف من ذلك . فرغم أن الذرة اعتبرت أهم محصول للغذاء في أمريكا قبل اكتشاف كولومبيا إلا أنه لا يعتقد أنه أول المحاصيل التي زرعت . فقد اكتشف حديثاً في كهف بالقرب من أوكامبو Ocampo بالمكسيك أنواعاً مختلفة من قرع العسل Grourd والفول والقرع الذي يرجع تاريخه إلى حوالي ٦٥٠٠ ق.م. وبالتأكيد كانت هناك مرحلة سابقة لزراعة الذرة في بعض مناطق الأنديز وعلى طول الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية .

ويبدو أن الفلاحين كانوا يعيشون على طول امتداد ساحل بيرو وشيلي في منتصف الألف الثالثة ق.م. وقد عرفوا جيداً عن طريق بقاياهم التي

خلفوها في أودية شيكاما Chicama وفيرو Viru في بيرو .

أما عن الصيد البري والبحري فقد مثل أهمية كبيرة في اقتصادهم ولكن زرعوا أيضاً القرع والفول وقرع العسل Gourd في شيلي ، ولم يكن الذرة معروفاً لهم . ولم يصنعوا القدر ولكن زرعوا القطن واستخدموه في صناعات نسج الشباك والحقائب . وكانت أكواخهم دائماً بيضاوية غاطسة في الأرض مبطنة من الداخل لها سقف من الخشب .

وقد أستأنس سكان الانديز في فترة ما اللاما لحمل الأثقال ولأكل لحومها والأبكا لأجل اصوفها . والخنزير أحياناً من أجل لحومه . وقد كان لديهم أيضاً الكلاب التي لا بد وأنها دخلت مبكراً إلى محلات الامريكيين . هذا ولم يستأنس كلا من الابكا واللاما لدرجة تسمح بالحصول على الألبان منهم .

وأهم حيوانات أمريكا الجنوبية المستأنسة لا توجد إلى الشمال من بنما إذ يبدو أن فلاحي وسط وشمال أمريكا قد امتلكوا الكلاب والديوك الرومية والنحل . ولا يعرف إلا القليل حتى الآن عن جماعات العصر الحجري الحديث الذين اشتغلوا بالزراعة في المكسيك لمدة ألف عام قبل ظهور الحضارات الراقية . ويظهر في كهف لا بيرا La Perra أن الذرة قد زرعت مبكراً منذ حوالي الألف الثالثة ق.م. .

ومما هو جدير بالذكر أنه بينما كان بعض المزارعين القدماء في الاقليم يشغلون كهف بات كان هنود البيبلو ما زالوا يعيشون هناك في هذه الحضارة التي يمكن أن نسميها حضارة العصر الحجري الحديث ذات الفخار الملون في زمن الاستعمار الأسباني .

وهكذا ينتهي هذا الفصل في تاريخ متأخر جداً عن بداية الجزء الثاني من المجلد ، ولذلك لأنه يعطي أساساً متواضعاً لأضواء الحضارة الباهرة التي

يختص بها هذا الجزء . إذ أصبحت طرق الحياة أبسط ، كما أصبحت معلوماتنا عنها بصفة عامة أكثر ولا سيما كلما تحركنا خارج الاودية النهرية مركز الحضارات القديمة . وهنا يحسن أن نقدر الدور الذي لعبته الإنسانية في التقدم الحضاري ذلك الدور الذي استطاع أن يقود حياة الإنسان في بعض الاحيان نحو التقدم الملحوظ في الفن والحرف والادب .

الفصل الثاني

المجتمع

لا بد وأن حياة فلاح العصر الحجري الحديث اختلفت تماماً عن حياة أسلافه الصيادين الذين عاشوا في آواخر عصر البلايستوسين . وربما كان الاختلاف أكبر في بعض طرق الحياة الرئيسية عن ذلك الاختلاف الموجود بين خبرات الفلاح الحالي . ولعل هذا الفرق يشبه ذلك الذي وجد بين فلاحي غرب ايرلندة والدنمارك وسابقيهم من فلاحي العصر الحجري الحديث . هذا التناقض راجع قبل كل شيء إلى استئناس الحيوان والثورة الاجتماعية الكبيرة التي تمخض عنها المعيشة في منازل أو اكواخ أو قرى مستقرة . ويجب أن نضع في الاعتبار أنه بالنسبة للافراد كان التغير النفسي الثوري هو تحطيم الروتين والعمل الشاق المصحوب بالاضطرابات والانفعالات وعدم الاستمرار ، بينما الجانب الاجتماعي الجديد كان استقراراً جديداً تتطلب نظاماً أدق وسلطة أكبر . فمقدرة الصيادين في صناعة الآلات ونصب الشباك كانت لاشيء إذا ما قورنت بعمل الفلاح حينما كان يطعم حيواناته من أجل الحصول على صغارهم والبانهم أو حينما يبقى حبوب القمح لكي يحصدها بعد عام .

لقد رأينا فيما سبق أن طريقة حياة العصر الحجري الحديث كانت نموذجاً للزراعة المختلطة القائمة على الزراعة وتربية الحيوان . وتوجد أدلة في اماكن متناثرة هنا وهناك كما هو الحال في كهف بلت تشير إلى وجود رعاة بدائيين

جداً يتجولون بقطعان الماعز تحت ظروف مناخية قاسية . وبالمثل في جزر اوركني وجد جماعات رعاة لم يزرعوا الحبوب ، كما وجدت أيضاً تنوعات في الأهمية النسبية للمحاصيل والحيوانات وفي مدى أهمية الدور الذي ظل يلعبه في الاقتصاد . وعلى أي حال كان فلاح العصر الحجري الحديث مرتبط بالارض ، إذا كان عليه أن يبذر الحب وينتظر إلى أن يتم نضجه . ليس هذا فحسب بل لا بد وأنه نعم بمحصول غلاته وكان لديه فائض من الطعام في فصل الشتاء . وكان هذا الفائض هو التضحية الأولى للأنسان من أجل حريته وطمأنينته .

وبطبيعة الحال كان الارتباط الجديد بالتربية دافعاً قوياً لأن يجعل الملكية امراً له أهمية اجتماعية كبيرة . فالاشكال المخلخلة للملكية التي سدت حاجات الصيادين اصبحت عديمة الجدوى بالنسبة لحقول الزراعة . والاشكال المختلفة لملكية الارض لا يظهرها الأبحاث الاثرية غير أنه يمكن معرفتها عن طريق المزارعين البدائية في الوقت الحاضر ، وعن طريق هؤلاء الذين كانوا موجودين حين بدأت السجلات المكتوبة . وعن طريق المقارنة يظهر أن مجتمع القرية كان لديه حقول خصبة ، ربما استغلت جماعيا أو اشترك في استغلالها زراعياً قبائل منفردة أو عائلات . وإذا كانت الطريقة الثانية هي السائدة حينئذ فلا بد وأن تكون الحقول قد أعيد توزيعها كل عام أو ربما كانت ممتلكات العائلة الواحدة متناثرة بعيداً لكي تتجنب عدم التوزيع العادل للأراضي الخصبة . وكان الرعي يمارس بصفة عامة جماعياً ولكن من المحتمل أن بعض الناس قد قاربوا رعاة البدو الحقيقين . إذ كانت حيواناتهم ملكاً للجميع . والأراضي غير المزروعة بين السكان الحاليين ليست بصفة دائمة ملكاً للعشيرة ولكن إذا ما طهرت الأرض وزرعت فانها تصبح ملكاً للعائلة المشرفة على التطهير ولكن لا بد للعائلة من أن تخرج عائدها للعشيرة .

ولقد ذكر فيما سبق أن الأرض ربما استغلتها العائلة أو العشيرة غير أن التميز بينها أمراً هاماً . ويبدو أن الأسرة كمجموعة تربطها روابط القرابة كانت أقوى وأقدر من العشيرة الكبيرة على التحول إلى الزراعة ، وربما كان هذا التحول هو أحد التغيرات الاجتماعية الممكنة التي جاءت بالتدريج لاعتناق الاقتصاد الجديد . وهكذا فالجماعات المالكة في الوقت الحاضر تكون غالباً رابطة عائلية صغيرة أو أي مجموعة متقاربة أخرى وليست عشيرة قائمة بذاتها .

ومن ناحية أخرى توجد دلائل تشير إلى أن الملكية في الماضي ربما وضعت في يد العشيرة . فعلى سبيل المثال — وكما كان يحدث غالباً — رغم تبعية الأرض ومنتجاتها للأسرة ، إلا أن جميع الأفراد الآخرين للعشيرة لهم الحق في طلب استخدام الأرض وغالباً لا يرفض طلبهم . ويبدو أن هذا التغير التاريخي بدأ مع طريقة حياة العصر الحجري الحديث ، حيث أمكن التوصل لذلك عن طريقة دراسة الجماعات البدائية التي تعيش في الوقت الحاضر خارج الأنظمة المعروفة الخاصة بملكية الأرض لهذه الجماعات البسيطة حيث يوجد تقليد ملكية العشيرة . ويبدو أن الملكية في وقت ما كانت عامة للعشيرة أو مناصفة ، وأنه حل محلها — من الناحية العملية — الملكية التي ترتكز الحقوق العاملة فيها على المالك .

وهذا الاتجاه متوقع إذ وجد هناك بالتأكيد شيء يشجع على اختفاء الشعور بالملكية في العمل الشاق في الحقل المقفل الملحق بكوخ العائلة . هذا يشبه تماماً الحاجة إلى الشجاعة الجماعية والمشاركة الجماعية في الصيد وفي الحياة المنزلية في الكهوف . فقد دعى نظام الري إلى نوع خاص من المجهود الاجتماعي العام والضبط الاجتماعي في المجتمع الزراعي . وكما رأينا أن الفرصة الملائمة التي قدمتها الواحات ساعدت سكان جريكو على أن يصلوا في نمو نظامهم الاجتماعي إلى مستوى مرتفع منقطع النظير . وقد حفرت القنوات أيضاً

ووزع الماء في سيالك بأيران ، ولكن التعاون في الري لا يرجع فقط إلى حضارة العصر الحجري الحديث بل إلى المدنية بصفة عامة .

وملكية الأسرة كانت شكلا رائعاً جداً للملكية العامة إذ ربما كانت لعدد كبير من الآباء والأخوة والأخوات والعمات حقوقاً متساوية في الأرض وفي انتاجها . وعلى أي حال ربما أدى ذلك إلى وجود ملكية فردية أكثر دقة بتضيق الحقوق وإعطاء مكافأة مباشرة للعمل (كل حسب مجهوده) أكثر مما كان في شكل ملكية العشيرة . وامتلاك الفرد للارض أمراً نادراً بين الجماعات البدائية غير أنه يوجد عدد من الأمثلة لأشياء خاصة مثل أشجار الفاكهة التي امتلكها بعض الأفراد . وربما لم يمتلك الرجل شجرة على الأرض التي في حوذته فحسب بل أيضاً النباتات الموجودة بها والتي يرثها أبناؤه من بعده . وقد افترض أن هذا النوع من الملكية الشخصية يظهر عادة حينما يختلط السكان مع بعضهم ولا سيما حين تقابل جماعات ابوية مجتمع أموي الأصل . وإذا كان هذا موجوداً في العصر الحجري الحديث بسبب دوافع متعددة فمن المحتمل جداً أنه ظهر بوضوح بعد ذلك في المراحل اللاحقة حينما زادت حدة التسرب والقهر للجماعات البشرية في مناطق متعددة من العالم القديم.والابتعاد عن ملكية العشيرة امر على جانب كبير من الأهمية إذ أنه لا بد وأن اتفق بكل تأكيد مع ضعف النظام الأموي الموروث . وبالمركز الاجتماعي للمرأة بصفة عامة . وقد ذكر الانثروبولوجيون الاجتماعيون أنه يوجد بعض الحقائق التي تبين بوضوح العلاقة بين الملكية الجماعية وحق المرأة من ناحية ، وبين الملكية الفردية وحق الرجل من ناحية أخرى . غير أن نمو الحياة المدنية بصفة عامة قد وضع نهاية لهذا النظام الأموي بما في ذلك النظام الذي عمر في أشكال الحضارة المصرية والكريتية . ومرة أخرى نجد أن نظام الملكية العامة خارج المراكز الأولى للحضارات نقصت لدرجة كبيرة مع قدوم أصحاب الحضارات الأولى للبرونز ، وأيضاً ربما نال هذا النظام الضعف حينما قل إنتاج الأرض . ولكن هناك أسباب كثيرة تدعونا لافتراض

أن حق المرأة ونظام العشيرة ظل سائداً تحت ظروف طريقة حياة العصر الحجري الحديث . إذ أن الأرض ربما ورثت عن طريق المرأة . وفي الحقيقة لا بد من الاقتناع أن المجتمعات الاولى للعصر الحجري الحديث في مداها الزمني والمكاني أعطت المرأة مركزاً ممتازاً لم تعرفه من قبل لأن طريقة الحياة والمهارات المتطلبة لها كانت ملائمة للمرأة تماماً . أما عما إذا كان نظام العشيرة ما زال طوطميا في المناطق التي قاومت النظام الجديد فأمر لا نستطيع الحكم به . فالنظام الطوطمي يوجد في الوقت الحاضر بين الزراع البدائيين ، ومن الممكن تفسير نظام المقاطعات الذي ظهر في عهد الاسرات في مصر واقترن بالمعتقدات الحيوانية على أنها بقايا للنظام الطوطمي في فترة ما قبل التاريخ . هذا ويوجد ادلة أقل إيجابية من الأدلة السابقة تشير إلى وجود هذا النظام بين جماعات العصر الحجري الحديث بدرجة أكثر من أسلافهم الصيادين . غير أن هذا النظام الاجتماعي القائم على الاعتقاد الطوطمي اصابه الضعف حين قامت الحياة المستقرة في الحقل والقرية .

وأما الممتلكات الأخرى غير الارض فربما كانت في حوزة الاسر الصغيرة أو الافراد . فحقيقة كان من بين الاشياء البدائية التي تتطلب عملا جماعياً في صناعتها كالقوارب مثلا التي بقيت في بعض الاحيان كممتلكات عامة . غير أن هذا لم يكن عرفاً سائداً فالمنازل التي شيدت غالباً بواسطة مجموعة من السكان كانت ملكاً لهم ، ومن ثم يبدو من المعقول ان بعض منازل القرى الصغيرة ذات الاشكال والمتعددة والتي انتشرت في العالم القدم مع انتشار اقتصاد العصر الحجري الحديث كانت ملكاً لعائلات تعيش فيها . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ظلت للمنازل الجماعية افضلية من السكن .

وبالنسبة للممتلكات الصغيرة أصبحت الآن أكثر وفرة عن ذي قبل ولا بد وأن امتلكها أفراد . ولا يدخل تحت الممتلكات الصغيرة الاسلحة فقط والالآت وادوات الزينة ولكن أيضاً كل المنتجات الخاصة بالحرف الجديدة للفخار والنسيج والتي كانت بالتأكيد اثمن واغلى ممتلكات الرجال والنساء

والاطفال الذين قاموا بصناعتها أو اعطيت لهم . فالرغبات الشخصية البسيطة كان لا بد أن تجد مكاناً بين الرغبات الإنسانية بعد أن ازدادت المهارات ووجدت منازل أكثر استقراراً وفخامة .

ولا بد أن الحياة في القرى والمدن الصغيرة ولدت الشعور بالجيرة إذ أن الملكية الخاصة والعمل في المنزل اعطى العائلات الشعور بالمشاركة ، كما اعطى أيضاً الاحساس بالجيرة التي كانت غير ممكنة بالنسبة لجماعات الصيادين التي عاشت على هيئة جماعات متفرقة . ففي القرى الكبيرة والمدن الصغيرة كتلك التي وجدت في عصر ما قبل الأسرات في مصر ، وفي جنوب شرق آسيا وايضاً التي وجدت في مناطق متناثره في أوروبا في العصر الحجري الحديث لا بد وأن كان بها بداية حقيقية لحياة الشوارع التي عن طريقها يمكن الإنسان الذهاب إلى الخارج ليرى غيره ويتحدث معه في أماكن مقابلة عامة ومعروفة . وربما كان لتأثير المناخ اثر في وجود اختلافات عديدة في العادات الاجتماعية كما هو الحال في وقتنا الحاضر . إذ لا بد أن المناخ أجبر الشعوب التي حملت الزراعة إلى الأجزاء الباردة الرطبة في أوروبا وآسيا على ان يمضوا اوقات أكثر في منازلهم وذلك بالمقارنة بهؤلاء الفلاحين الأكثر سعادة والذين عاشوا في مناطق النشأة الأولى المتميزة بالدفء .

ويبدو أن طريقة الحياة الرئيسية للعصر الحجري الحديث كان يسودها السلام بصفا عامة ولم تعطي مجالا لمغامري الحروب : فعلى سبيل المثال لا توجد أي قرية دانوبية محمية رغم أن بعض محلات العصر الحجري الحديث في بعض المناطق قد احيطت بخنادق واسوار ، وكانت في العادة لاجل الحماية من الحيونات المفترسة أكثر من الحماية من الأعداء البشريين . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن الحوائط وبرج جريكو اقيمت في وسط اقليم غني في ثروته ويحيط به جماعات اقل استقرار من أهل جريكو ومن ثم كان لا بد لسكان المدينة الاغنياء ان يحموا مدينتهم من هجمات الغزاة الفقراء الذين عرفوا خلال التاريخ .

غير أن أختفاء اسلحة الحرب بصفة عامة بين أثاث مدافن العصر الحجري الجديث تعطينا أكثر من برهان قوي لإختفاء افكار الحرب في قلوب الفلاحين الجدد . وعلى النقيض من ذلك تماماً ظهرت بعض الاسلحة في أواخر العصر الحجري الحديث واوائل عصر البرونز حينما عثر على فؤوس المعركة والمدى والأنواع الأخرى من الاسلحة التي وجدت في قبور كل الرجال البالغين في المنطقة الممتدة من بحر قزوين والأستبس الروسية إلى اسكنديناوة وبريطانيا . وعلى الرغم من استبعـاد التفسيرات الاقتصادية (١) إلا أنه يبدو أن الارض الجيدة كانت مرغوبة . وأن كل جيل جديد كان يجد أن فضل الحياة الجديد يرجع جزئياً إلى السلام الذي ساد بين الجماعات الأولى في العصر الحجري الحديث . وبالمثل فإن سبب ازدياد افكار الحرب في المرحلة المتعاقبة يرجع كلية إلى ازدياد السكان ونقص في الارض الجيدة التي كانوا يعتمدون عليها في طعامهم .

وقد تطلب اقتصاد العصر الحجري الحديث تخصصاً في العمل والمهارات أكثر من تلك التي كانت موجودة في مجتماعات الصيد . هذا التخصص كان لا يزال طفيفاً في مرحلة العصر الحجري الحديث ولكن أخذ في الزيادة ، كلما اقتربت الأحوال المدنية ليظهر فصلا تاماً بين عمل كل من الجنسين . وقد اتفق بصفة عامة أن المرأة تبعاً لدورها القديم كجامعة للطعام والخضروات كانت هي المسئولة عن اختراع وتطور الزراعة . ويبدو أن الأرض استمرت لفترة طويلة تعد بواسطة العصي المعقوفة وليس بالمحراث وأن المرأة ظلت هي الفالحة للارض . وربما اخترعت المرأة أيضاً صناعة الأواني والنسيج حيث ابقت هذه الحرفة في يدها (٢) . ولا بد وأن حرفة الرجال الرئيسية كانت هي

---

(١) قد عشقت بعض الجماعات الحرب مع جيرانهم بدون أي حاجة حيوية Lebensraum .

(٢) يعتقد البرفسير ر.م. بيرندت R. M. Berndt ان المرأة كانت مسئولة لدرجة كبيرة عن اختراع ونمو الزراعة وصناعة الفخار والنسيج . . . الخ . على الرغم من انه لا يوجد دليل قوى على ذلك .

تربية الحيوانات . ونلاحظ بين المجتمعات التي بقي فيها الصيد مصدراً هاماً للطعام أن سكانها اشتغلوا بصناعة الفؤوس الحجرية والعصي المعقوفة وغيرها من الأدوات الثقيلة ، وحينما فتحت الاراضي الجديدة كان قطع الاخشاب عمل مضني ترك للرجال . هذا وقد اشتغلوا أيضاً بالتجارة حيثما وجدت .

وفي القرية العادية لا يوجد أي دليل عملي لوجود المتخصصين كل الوقت إذ يبدو أن كل أسرة قد مارست بنفسها كل أنواع العمل والحرف . وحتى في الحضارات التي صنع بها الفخار الملون الدقيق قامت كل أسرة بصناعة حاجاتها بنفسها ومن المحتمل أن بعض الهدايا الشخصية في حرف معينة قد صنعها جيرانهم وحصلوا عليها بعد دفع ثمن اتعابهم من الحبوب أو غيره من الطعام ولكن الرجال الحرفين المتفرغين طول الوقت لم يظهروا إلا مع الاقتصاد المدني .

وعلى أي حال ربما وجد قليل من العمال المتخصصين خارج مجتمع القرية . ففي بعض أجزاء من غرب أوروبا — على سبيل المثال — مورس تعدين الصوان والحجارة وذلك للحصول على المواد الأولية اللأزمة لصناعة الفؤوس في صورة دقيقة . وقد اعتقد دائماً أن أفراد أي حرفة غريبة يتجمعون سوياً ويكونون مجموعات خاصة بهم كما يفعل الحدادون حالياً بين بعض الجماعات الإفريقية . وربما كان هناك أيضاً بعض الأفراد الذين تخصصوا في التجارة فطافوا من مجتمع لأخر حاملين معهم الأصداف أو غيرها من المواد الخام ، وفي العادة كانت مواد ترفيهية خاصة بأدوات الزينة الشخصية . وعلى أي حال لا يوجد دليل فعلي يشير لوجود مثل هؤلاء التجار وإن كانت بضائع مثل Spondylus قد نقلت بغرض التجارة من قرية إلى أخرى لمسافات طويلة جداً.

وهناك نمط أخر من التقسيم الوظيفي يمكن دراسته وهو شراء سكان الريف للحيونات البرية أو المواد الخام من جيرانهم الصيادين المعمرين . وهذه الحالة من الاختلاط بين المزارعين وجامعي الطعام حالة عامة في الوقت

الحاضر . وربما تكررت مراراً في فترات ما قبل التاريخ حيث أمكن تتبعها في الأماكن التي تقدمت بها طرق البحث الأركولوجية . ومن المعروف أن سكان ارتيبولي أصحاب تقاليد العصر الحجري الحديث عمروا لفترة من الزمن بعد وصول الفلاحين الأوائل إلى اسكنديناوة ، ومن ثم فالاتصالات التجارية . المعروفة التي وجدت بينهم وبين الزراع كانت تتضمن تبادل القمح بالاسماك والطيور البرية . وفي بريطانيا يبدو أن هناك أيضاً بعض جماعات الصيادين المعمرين (١) حيث يوجد دليل يشير إلى أنهم ربما كانوا مسؤلين لدرجة ما عن تجارة الصوان والفؤوس الحجرية . وهذه الجماعات التي حافظت على طريقة الحياة الرعوية اشتغلوا في بعض الأحيان كحمالين بين المجتمعات المستقرة وكان لهم انتشاراً واسعاً .

واحتاج فلاحوا العصر الحجري الحديث بالتأكيد لبعض سلع الترف التي كان عليهم احضارها من بعيد ، وفي بعض الأحيان استوردوا أكثر المواد الخام الاسياسية لصناعاتهم من خارج أقليمهم المباشر . غير أن هذا لا ينفي الحقيقة التي تتضمن أن اقتصاد العصر الحجري الحديث يتميز أساساً بوجود المجتمعات الصغيرة المكتفية ذاتياً . إذ أن كل جماعات الرواد الاوائل الذين وصف انتشارهم في الفصول السابقة استطاعوا أن يعيشوا حياتهم بدون أي اتصال بالعالم الخارجي . فمن بريطانيا وحتى كانسو ومن اوبي إلى النيل الأعلى،وفي مناطق الحرارة الشديدة والبرد القارس،وفي الأراضي الجافة وفي الأراضي التي تسقط عليها كمية كبيرة من الامطار ، في كل هذه المناطق تمكن فلاحو العصر الحجري الحديث باكواخهم وقراهم أن يلائموا أنفسهم للبيئة المحلية حيث استغلوها استغلالا كاملا . وقد احضر بصفة عامة المستقرون الأصليون حيواناتهم وبذورهم معهم ، ورغم ذلك فقد شاهدنا كيف استأنست رهجنت الأنواع المحلية من الحيوانات ومن ثم فبعض أوجه حضارتهم اصبحت مرتبطة تماماً بالأحوال والفرص المحلية ، وقد كان ذلك هو السبب

(١) من المعروف أن حضارة الصيادين قد تاثرت كثيراً بحضارة القادمين الجدد .

في وجود بقع صغيرة تحمل حضارة العصر الحجري الحديث وتعيش بعيداً جداً عن الكتلة الكبيرة — نسبياً — التي ميزت العصر الحجري القديم . وقد ساعدت حياة السلام المستقرة المصاحبة للعزلة على مضاعفة الحضارات المحلية .

أما عن أشكال التيارات والسلطة في مجتمعات العصر الحجري الحديث فمن الصعب جداً تبعاً للأدلة الأثرية أن نشير إليها على انها أشكال لمملكية . إذ من الواضح تماماً أن ملكية الأرض والحيوانات والأدوات الكثيرة المستخدمة قد تؤدي إلى كثرة المنازعات الأمر الذي يتطلب ضبط اجتماعي . وفي المناطق الزراعية ظلت الحاجة للري تزداد : ومن ثم كان الحصول على الماء من أسباب المنازعات بين القدماء . ومن ناحية أخرى فالأنواع المختلفة من الملكية العامة في العصر الحجري الحديث لم يترتب عليها متاعب كتلك التي نشأت عن الملكية الفردية .

ونستطيع أن نأكد أن قوة القانون كما تفرضه العادات لم يتشكل محوريا في هذه الفترة ، بل نلاحظ أن كل الأشياء التي ذكرت في الفصول السابقة والخاصة بقوة المحرمات Tabu والجريمة ضد الأرواح وعقابها يمكن تطبيقها تماماً على المجتمع الجديد. هذا ونلاحظ أن في المجتمعات البدائية الحديثة أن ملكية الأشجار في الأرض المشاع في أكثر من مجتمع قد حمتها المحرمات الخاصة . وحينما تنشأ منازعات على الأرض وعلى الأشياء الأخرى اللاحقة بها كانت تحل هذه المشاكل عن طريق مجالس التي ربما شملت جميع أفراد القرية أو المسنين المعروفين منهم فقط . وقد كانوا يتوصلون للحكم عن طريق أدلة غير محدودة . ولكن هذا الحكم كان يعني الاتفاق العام . ولقد ذكر ان هذا النظام يوجد حالياً بين الجماعات البدائية . ولا يوجد في هذه المجالس أي وسائل شكلية للوصول إلى القرارات عن طريق التصويت أو غيره من الوسائل التي تسود بيننا . ويبدو أنهم كانوا يتوصلون للحقيقة بعد مضي وقت من المناقشة وذلك بنوع من الأتفاق العام . . . المجموعة وصلت إلى

أتفاق . هذا ويوجد ولاء اجتماعي يحتم ضرورة وجود أي نظام اجتماعي محدد للسلطة الحاكمة .

وفي الحقيقة لم يعثر كلية في حضارات العصر الحجريَ الحديث الرئيسية على أي منازل كبيرة أو مقابر ذات أساس فاخر من نوع مقابر الحكام . وهذا في حد ذاته دليل قوي في صالح هذا النوع من الحكومة الجماعية . وربما كان تأثير سلطة الكبار ذوي الخبرة والمعرفة في مجتمع زراعي أثر أقوى عن مجتمعات الصيادين حيث كانت القوة الجسمانية هي القوة الغالبة في المجتمعات الأخيرة . ومن المحتمل أيضاً أنه كان هناك مجالس حكم الاعدام مكونة من كبار السن . ورغم أنها محدودة إذا ما قورنت بالوقت الحالي إلا أنها كانت أكثر من العصور الحجرية القديمة .

وبينما كان الحكم بالعادات والاتفاق العام يبدو نظاماً ملائماً تماماً لنوع المجتمعات التي قدمنها ـ مثل الدانوبيين ، وسكان البحيرات السويسرية . وسكان جرمو ، ومربي الخنازير في النهر الأصفر وغيرهم من المجتمعات التي تعيش في مناطق متطرفة جغرافياً ــ تشير الادلة الأثرية إلى أن هذا النظام لم يكن عالمياً . فالمقابر الضيقة جداً في كوبان باوانيها الفضية والذهبية ومقاعدها المزينة لا بد وأنها كانت ملكاً لرؤساء متبربرين . ولكن كما رأينا في الحضارة البونتكية أنها ليست حضارة للعصر الحجري الحديث . لأنها ظهرت كتأثير مباشر من من حضارات راقية على مجتمع صيد .

غير أننا لا بد أن نعترف أن أشكال القيادات التي بدأت تظهر مع مجتمعات العصر الحجري الحديث أصبحت من الناحية الاجتماعية أكثر تعقيداً وذلك كجزء من تقدمها نحو المدنية . وقد عثر في العمره بمصر السفلي وقرية مرمدة التي تنتمي إلى حضارة العصر الحجري الحديث على رجل مدفون وبصحبته زرار خشبي مقوس يقارن بالصولجان Ames Sceptre ويشمل على شعار ملك مصر السفلي . وربما تمكن رئيس من هذا النوع أن يحكم مجموعة من القرى وقد وصف أحد الانثروبولوجين مجتمع أفريقي حديث فذكر « أن النظام

الاجتماعي أساسه مجموعة من القرى تتحد في مجموعة واحده تحت زعامة رئيس عام . ولكن في ثنايا هذا المجتمع السياسي كان من الممكن بصفة عامة اكتشاف تأثير وحداوي ينبت من الشعور بالملكيةKingship ومن ثم لاعتناق معقدات دينية عامة . . . »

وقد علق أحد المهتمين بالدراسات المصرية على ذلك فقال « أن هذا الوصف الجيد يناسب الأحوال في مصر في عهد ما قبل الأسرات . حيث يظهر بوضوح عندما ننظر إلى البقايا المتواضعة لقرى ما قبل الأسرات أن هناك تجانساً في محتويات آلاف المقابر التي تنتمي إلى هذه الفترة ؛ وتقسيم مصر في وقت متأخر إلى مقاطعات ترجع في أساسها إلى المجتمعات التي تكونت في الأزمنة الأولى ، والسهولة التي استطاعت بواسطتها هذه المقاطعات أن تكون مستقلة تحت حكم زعماؤها المحلين حينما ضعفت السلطة المركزية ، وتمثيل هذه المقاطعات عن طريق رموز متصلة بالمعتقدات المحلية . . . وكل ذلك كان بدون شك اقتباساً من أحوال هؤلاء الذين عاشوا قبل مينا (١) » .

هذا إذن هو نوع التكوين الذي ربما بداء يظهر في مجتمع العصر الحجري الحديث في الأقاليم التي كانت تتقدم نحو المدنية . وكما أن هؤلاء الزعماء المحلين لا بد أنهم قاربوا لدرجة ما حكام عصر الأسرات ، إلا أنه من الممكن أن نجزم بأن رؤساء جماعات قرى ما قبل التاريخ أو المقاطعات كانوا حكاماً دينين أكثر منهم مدنين . ورغم أن الرؤساء كانوا بكل تأكيد من الرجال إلا أن الوراثة قد تبعت الأم مثلما ما حدث لرؤساء المقاطعات في العصور التاريخية . وفي الحقيقة كان الأرث الأموى سائداً في المجتمع المصري ، وظهر بصورة خاصة في زواج فرعون من شقيقته لتشاركه في الملك أو على الأقل لحفظ العرش .

ووجود الكهنة والكاهنات بين قواد مجتمعات العصر الحجري الحديث

(1) H. Frankfort in Kingship and Gods quoting C.G. Seligiman in the Races of Africa.

أمر من الصعب إثباته أثرياً ، ومثله في ذلك مثل الأنظمة الاجتماعية الأخرى . فالسحرة ورجال الطب Medicine men الذين كان لهم نشاطاً واضحاً في العصر الحجري القديم ظلوا يمارسون نشاطهم في المجتمعات البسيطة التي ظهرت أثناء الانتشار الأول لحضارة العصر الحجري الحديث ، وبين هؤلاء الذين بقوا في نفس المرحلة الاجتماعية من التطور . وعلى أي حال لم يعد هناك سبب لربط بعض الأفراد بممارسة فن السحر الديني إذ يظهر نظام الكهنة بوضوح أكثر في مستويات أعلى من هذا التطور الاجتماعي . كما يبدو في مرمدة ومعابد جريكو واريدو ، ويظهر أن هذا النظام ارتبط بمعتقد خاص أو بحاكم معين . وبالتأكيد لقد ضم هذا النظام كهنة من الأناث والذكور . وهؤلاء ظهروا في تاريخ مصر وكريت . ولا بد بكل تأكيد أن كان لهم مركزاً ممتازاً في ملطه بدليل وجود التماثيل المصنوعة من الزجاج الطبيعي والخاصة بالأم الكبرى The Great mother . هذا وقد خدمت مجموعة من الكاهنات آلهة أمون بينما خدم البعض الآخر آله الذرة Maize mother والتي يرجع تاريخها إلى الفترة السابقة لحضارة الانكا بأمريكا الجنوبية .

والحضارات التي تضمنت بناء المقابر الميجاليثية لها أهمية خاصة بالنسبة لمجتمع العصر الحجري الحديث . فكما رأينا سابقاً أن هذا الشكل من الفن المعماري والمعتقدات المصاحبة له ربما انتشر بواسطة جماعات المبشرين الذين استطاعوا أن يكتسبوا قوة خاصة في مجتمعاتهم المحلية .

وإذا كان هذا التفسير صحيحاً لا بد وأن كل الجماعات التي اعتنقت هذه الأنظمة الدينية والموجودة على الساحل الغربي لا بد وأن كان لديها قواد دينيين لديهم على الأقل سلطة إجتماعية يستطيعون بواسطتها الحث على التبرع إلى العمل . أما ما هو مقدار هذه السلطة المدنية المفوضة لديهم فهذا أمر لا نستطيع التنبأ به حتى ولو عن طريق الحدس والتخمين . وفي الحقيقة لا يوجد أي اتفاق يشير إلى عما إذا كانت المقابر الكبيرة قد استعملت للدفن المتعاقب لفترة طويلة من الزمن أو أنها كانت حقيقة لها صفة العامية ، بمعنى

أنها استخدمت لدفن أفراد أو أن الدفن فيها كان قاصراً فقط على الطبقة الحاكمة .

وقد أمكن ملاحظة هنا وهناك في غرب وشمال أوروبا تقارب عائلي واضح بين الجثث المدفونة في مقابر احتوت على أعداد غير كبيرة . هذه الحقائق تناقش في صالح أن المقابر الميجاليثية كانت تقام بدافع وجود قيادة دينية من نوع ما . ومن ناحية أخرى قد دفن عدد كبير من السكان في المقابر في بعض الأقاليم ولا سيما صقلية الأمر الذي يشير إلى وجود احتفال جنائزي عام ، وإذا كانت المتضمنات الاجتماعية للفن المعماري الميجاليثي تتطلب مناقشة خاصة فلا بد وأن النظام الاجتماعي الذي نشأ في بعض المواقع غير العادية مثل جريكو (١) ، لا بد وأنه ينتمي إلى المدنية الحقيقية . بمعنى أنه كان هناك متخصصون لا يعملون بصفة عامة في إنتاج الطعام ، بل أكثر من ذلك من المحتمل وجود نظام إداري منظم به حكام وكهنة . حدث هذا منذ تسعة آلاف سنة مضت قبل معرفة صناعة الفخار .

ولقد ذكر فيما سبق أن تاريخ جريكو المصور يتميز بالاستمرار وبنمو حياة المدن في الأودية النهرية . غير أن هذا من ناحية التاريخ الاجتماعي يؤكد ما سبق أن ظهر : وهو أن أشكال التنظيم الاجتماعي التي نوقشت ما هي إلا مراحل للنمو . تتغير بسهولة مع الفرص التي تقدمها البيئة المحلية ومع الاتصالات التاريخية وأنه في ظروف غير عادية كتلك التي قدمها نبع الماء الدائم في جريكو (٢) من الممكن أن تتقدم الجماعة وتخلق نظام اجتماعي ارقى بصفة عامة من ذلك النظام السائد حتى في المناطق المتقدمة في العالم .

وعلى الرغم من أن جريكو مثلا فريداً في ظاهراتها المعمارية ، إلا أن الاكتشافات الثانوية بدأت تظهر أن محلات أخرى أحدث من جريكو كانت

---

(١) هذه المدينة المحصنة القوية المليئة بالمعابد بلغ مساحتها حوالي ٨ أفدنة .

(٢) يروي هذا النبع الآن ٧٠ ألف لاجيء عربي بالاضافة إلى السكان المحليين .

كبيرة مثلها . بل أكبر منها مثل كاتال Catal Huyuk في جنوب الأناضول التي ازدهرت في الألف السابعة ق.م. وغطت مساحة تعادل ضعف مساحة المحلة الأخيرة لقبل صناعة الفخار في جريكو ، بينما خيروكيتا Khirokitia في قبرص أحتوت على ما يقرب من ألف منزل .

هذا المسح للنواحي الاجتماعية لطريقة حياة العصر الحجري الحديث التي انتشرت من مراكزها القديمة من ٨ إلى ٤ ألف سنة مضت ارتكزت أساساً على الافتراض والحدس ولهذا فان كل النتائج التي وصلنا إليها صورية . غير أن الأساس العام يتكون من قرى متعددة أو مجموعة شيوعية بأشكال متعددة من نظم الحكم ، بواسطة مجلس القرية أو مجموعة من كبار السن .

وتنظيم العشيرة الذي عمر منذ الأزمنة القديمة أخذ يضعف بالتدريج لصالح ملكية الجماعات . وكما هو الحال في أرض البونتيك أو في الأقاليم التي تأثرت بالمبشرين الدينيين هنا وهناك . تأسست أنواع معينة من نظم الحكم أو القيادات الدينية . وأما في جنوب غرب آسيا ووادي النيل بدأت مجتمعات القرية قبل أن ينتهي العصر الحجري الحديث تنمو نحو الفلسفات أو النظريات الدينية التي ظهرت في عهد الأسرات . ومهما كان الأمر فانهم لم يذهبوا بعيداً في هذا الاتجاه لأن النظم القديمة لا بد وأن تغيرت جذرياً بواسطة الغزاة ، وبفرض الاختلافات التي أخذت مكاناً قبل تكوين المدينة .

هذه الأحداث تتفق مع التخصص الشديد في الحرف والمهن التي أدت إلى تعقيد المجتمع وتقسيم المجتمعات في عصر مدنيات البرونز . وحتى في الأقاليم التي تقع فيما وراء هذه المدنيات شهدت أحداث مماثلة بسبب نقص الأراضي المنزرعة ، وبسبب هجرة الشعوب المحاربة التي أدت إلى أشكال أخرى في تقسيم المجتمع ، أكثر بربرية ، ولكن أيضاً على نقيض قوي من التكوين الاجتماعي البسيط الذي ميز حياة العصر الحجري الحديث .

الفصل الثالث

الزراعة

لقد ظهر بوضوح أن اقتصاد العصر الحجري الحديث كان دعامته الزراعة المختلطة القائمة على تربية الحيوان إلى جانب الزراعة . غير أن الأهمية النسبية لهذا الاقتصاد قد اختلفت من قطر لآخر ، ومن حضارة إلى أخرى ، ولكن بصفة عامة بقي هناك نوع من العدل بين اهميتهما . إذ أن زراعة النباتات كان لها تأثير قوى على طريقة العصر الحجري الحديث حيث ربطت الإنسان بالتربة ومن ثم كان المحافظة على النبات والأرض هو الشيء الذي لا بد أن يضمن في المكان الأول .

زراعة النباتات

على الرغم من أن بعض الاعتبارات سوف تعطي لبعض النباتات التي زرعها الانسان أولا ، إلا أنه يجب أن نذكر أن الحبوب كان لها أهمية بالغة في اقتصاد كل من العالمين القديم والجديد (١) ، ففي آسيا وأفريقية واوروبا كان القمح والشعير والذرة كما كان الذرة في الأمريكتين هو الدعامة الأولى

(١) يذكر البروفسر س. ميزونو Mizuno أن بعض نباتات جنوب شرق آسيا كاليام لعبت دوراً هاماً في الاقتصاد الزراعي وأنها ربما كانت معاصرة للمرحلة الأولى لزراعة الحبوب .

للزراعة الخاصة بحضارة العصر الحجري الحديث (١) ؛ وأيضاً في جنوب الصين عثر على بقايا كثيرة من الأرز في مواقع العصر الحجري الحديث. ورغم أننا قد أعطينا صورة عامة لإنتشار الفلاحين ومحاصيلهم في الفصل السابق إلا أنه بقي أن نعطي صورة أكثر تفصيلا لنشأة وتوزيع الأنواع النباتية المختلفة المتضمنة في هذا الانتشار. هذا ويجب الآشارة إلى أن الحقائق الخاصة بالخطوات الأولى لزراعة الأصول البرية للحبوب ما زالت قليلة غير أن تاريخها الزراعي الذي أعقب نشأتها معروف تماماً.

ولعل من أبرز الاختلافات الموجودة بين الاصل البري لحشائش الحبوب وغيره من النباتات كالفول التي استنبطها الإنسان هو أن النبات الأول تخزن حبوبه بمجرد نضجها. وحينئذ كان على النساء أن تقمن بجمع الحبوب البرية. ومن ثم عليهن طحن هذه الحبوب في جلود أو سلال. وبطبيعة الحال كان من المحتمل أن يفقد جزءاً كبيراً من الحبوب في هذه العملية. وربما لم يتوصل الإنسان لمعرفة النضج الحقيقي للحبوب إلا بعد تجارب اختيرت في أثنائها البذور من هذه الطريقة البرية أو الطبيعية للانبات. ولا ننسى أن بعض النباتات تمر بها طفرة قاتلة فلا تنضج سنابلها أو قرونها ومن ثم فتسقط في العادة بذورها على الأرض وتفسد أو تتعفن. على أي حال إذا ما جمع الإنسان هذه النباتات وفتح سنابلها أو قرونها صناعياً. فانه يستطيع أن يبذر الحبوب في الموسم الثاني وبذلك تستطيع الطفرة أن تعمر. وهكذا يستطيع هو أو هي أن تسوي الأرض بالعصى دون أن تضيع وقتها في جمع الحبوب والفوز بها.

ومن المحتمل أن قروناً عديدة قد مضت حاول في أثنائها جامعي الطعام أصحاب تقاليد العصر الحجري المتوسط أن يختبروا أنواع النباتات المختلفة قبل

---

(١) تبعاً للبروفسير ميزونو لا بد وأن الأرز زرع في اثناء العصر الحجري الحديث في شمال الصين.

أن يختار والمحاصيل الرئيسية التي سوف يعتمد عليها تاريخ الإنسانية فيما بعد والتي أدخل عليها التحسينات إلى أن استقرت . ولكن من يستطيع في ذلك الوقت أن يميز بالتأكيد بين النبات المستأنس والنبات الضار ؟ . إذا حتى في تاريخ متأخر جداً عن ذلك تغير الشيلم فجاءة من نبات برى ضار ينمو بين القمح الاين إلى نبات مفيد يزرع . وسرعان ما بدأ ينمو في مساحة واسعة في العروض الشمالية حيث لم يستطع أن يعمر القمح هناك .

ومما هو جدير بالذكر أنه لا يوجد لدينا أي أدلة لهذه الفترة التجريبية الأنتقالية . غير أن سنابل القمح وجدت في جرمو بالعالم القديم كما وجدت قوالح الذرة في كهف بات في العالم الجديد ، وكلاهما كانا في صورة بدائية إذ لم يكونا قد وصلا في نموهما إلى مرحلة الاستقرار . وتبدو حقيقة غريبة وهي أنه في مراكز الحضارات الأولى في العالم القديم عثر دائماً على القمح والشعير جنباً إلى جنب . ولم يعثر على أي حضارة حجرية حديثة قائمة على واحد منها . ولكن بصفة عامة يبدو أن القمح كان دائماً في هذه المرحلة هو أهم المحصولين .

القمح :

تنقسم زراعة القمح إلى ثلاث مجموعات : الأولى وهي مجموعة Diploid وتتمثل في قمح Einkorn أو القمح الصغير ، والثانية مجموعةTetraploid ويمثلها قمح Emmer وماكاروني Macarohnie وريفتRivet . والمجموعة الثالثة وهي Hexa ploid ويمثلها قمح club wheat .

هذا التقسيم الذي وضع على أساس الكروموزمات يعترضه تقسيم آخر إلى قمح اينكون ، وإيمير . و Spelt . وكلها أنواع من القمح لا ينفرط الحب منها عند نزع غطائها بينما الأنواع الأخرى كلها أنواع من القمح العادي التي من السهل أن ينفرط الحب منها .

وقد وجد قمح الإيمير Triticum dicoccum بوفرة—عن أي نوع آخر من

القمح — في كل المواقع القديمة (١) ابتدأ من مصر وحتى بريطانيا واسكندينا وة

وتنتمي كل بقايا القمح التي عثر عليها بكثرة في مصر أبتداء من العصر الحجري الحديث وحتى العصر الروماني إلى هذه الأنواع . ويشبه قمح الإيمير لدرجة كبيرة أصله البري الذي يعرف الآن باسم T. dicoccum والذي ينمو برياً في المنطقة الممتدة من سوريا وفلسطين إلى العراق وإيران . ومن ثم فإكتشاف أن هذا النوع هو الشكل الأصلي للقمح قد دحض النظرية التي جعلت من الحبشة وطناً لقمح الإيمير .

وقد أرجع تاريخ القمح الذي عثر عليه في جريكو إلى ٥٠٠٠ ق.م. وكان شكله غير منتظم فبعض السنابل كانت خشنة وضعيفة (بالمقارنة بقمح T. dicoocum) بينما بعض الأنواع الاخرى تقترب في شكلها جداً من قمح إيمير . ونظراً لوجود القمح البري في وطنه في المناطق المرتفعة نسبياً فمن المحتمل أن هبوطه إلى المستويات المنخفضة لزراعته في الحقول ساعد على حدوث طفرات .

ويبدو أن هذا القمح انتشر من موطنه الأصلي في جنوب غرب آسيا على طول طريقين يتفرعان عند النهاية الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط — وقد اتجه أحد الطريقين نحو الجنوب إلى مصر والطريق الآخر إلى أوروبا حيث زرعه الدانوبيون وسكان البحيرات السويسرية وسكان طواحين الهواء التلالية في بريطانيا والمزارعون الأوائل في اسكنديناوة . وفي الحقيقة كان من الممكن لهذا النوع من القمح تحت الظروف التي فرضها مناخ الفترة الشبه باردة Sub - Boreal أن تكون زراعته أكثر في الأراضي الشمالية عنه في الوقت الحاضر .

(١) فيما عدا بعض قرى الدانوب .

ولا يعرف نوع بري لقمح Hexaploid ولكن يعتقد أن القمح العريض T.Vulgare وقمح T. Campactum قد ظهر إلى الوجود نتيجة لطفرات متغيرة من قمح إيمير وربما حدثت هذه التغيرات في أقليم القوقاز . وهناك نظرية أخرى ترى أن قمح Hexaploid ما هو إلا نتيجة لتهجين بين قمحي إيمير واينكورن ، هذا التهجين الذي يحدث بينهما نادراً في أغلب الأحيان . ولا توجد أي حضارة معروفة تنتمي للعصر الحجري الحديث اعتمدت أساساً على القمح العادي ولكن قمح T. Campactum عرف في العمرى بمصر ، وفي مواقع الدانوب وفي الدانمارك . وقد زرع بواسطة سكان البحيرات السويسرية بحرية أكثر في أواخر العصر الحجري الحديث ، كما انتشر كثيراً في أثناء عصر البرونز وأخذ مكانة قمح إيمير في عصر الحديد ، وظل ينمو في خلال العصور التاريخية في وادي السند في هارابا . أما القمح العريض وقمح Seplt فلم يكن موجوداً قبل عصر البرونز والحديد .

وقد كان قمح اينكورن هو النوع الوحيد من القمح المزروع الذي لم تكن له صلة بالقمح البري T. dicoccum إذ أنه انحدر من T.Aegilopoides وهي أنواع مختلفة برية من القمح ، وطنه في البلقان والبعض الآخر يمتد وطنه من آسيا الصغرى إلى فلسطين وإيران . ويدين باسمه إلى صفة وجود حبة واحدة بدلا من أثنتين في كل قشرة Spikelet . ولا يوجد قمح اينكورن بوفرة في أي موقع من المواقع الأولى في جنوب غرب آسيا رغم أنه وجد باستمرار في جرمو . ومن المؤكد أنه كان ينمو بريا في حقول قمح الإيمير . ومن الغريب أنه كان محبوباً جداً لدى الدانوبيين الأوائل الذين زرعوه أكثر من قمح الإيمير ، وربما يرجع ذلك إلى تفضيلة ايضاً في المنطقة الذي جلة منها في البلقان وآسيا الصغرى وهي المكان الذي نبتت فيه حضارة الدانوب الأوروبية .

زرع نوعان رئيسيان من الشعير ، الشعير ذو الصفين Two Row أو Hordeum distichum والشعير ذو الستة صفوف Six-Row . والنوع الأخير يقسم إلى فرعين أحدهما H. Hexastichum والأخر H. Tetrastichum وفي بعض الأحيان يعرف النوع الثاني بالشعير ذات الأربعة صفوف .. وكل هذه الأنواع توجد مع القنابع Glumes أو الحبوب العارية .

والأصل البري للشعير ذي الصفين H. Spontaneum يوجد في وطنه الأصلي في فلسطين وبلاد العرب وآسيا الصغرى والقوقاز وإيران وافغانستان . هذا وقد أمكن التعرف في السنوات الأخيرة على أنواع برية ذات ستة صفوف H. Agriocrithon في الجزء الشرقي من التبت، وقد اعتقد الآن أن هذين النوعين من الشعير قدما من مركزين أحدهما في الغرب والأخر في شرق آسيا .

وأقدم أثار الشعير التي عثر عليها وجدت أيضاً مثل القمح في جرمو ، وكانت من نوع ذي الصفين وهو مثل قمح الإيمير تداخل بالتأكيد بين الأصل البري لشعير H. Spontaneum والنوع المزروع ؛ ويثبت ذلك اتصال ماشر بين النوعين . وقد وجد الشعير ذو الصفين في صورة زراعته الكاملة في مواقع قديمة للعصر الحجري الحديث في ماتاراه Matarrah وتل حلفا وأناو Anau ، كما وجد في مصر بالفيوم ،كما وصل أيضاً إلى سويسرا في العصر الحجري الحديث . وهذا الانتشار الغربي لشعير H. distichum ، امر متوقع بعد أن اختفى من الشرق الأقصى إذحدث تطور ثوري قديم للشعير ذي الستة صفوف في الصين . والشيء الأعجب من ذلك أنه كانت توجد زراعة واسعة لهذا النوع من الشعير Six-Row ، وعلى الخصوص الشعير ذو السنابل الكثيفة Dense eared في أوروبا في العصر الحجري الحديث . أما نوع Lax eared فقد وجد في الفيوم والبداري بمصر . وإذا كان الشعير ذو الستة صفوف قد نشأ حقيقة في الشرق . فإنه نجح لدرجة كبيرة في استعمار الغرب أكثر

من نجاح شعير ذي الصفين في توسيع نطاق انتشاره صوب الشرق .

الذرة الرفيعة

تشتمل الذرة على نباتات مختلفة تنتمي إلى أجناس عديدة ، والتي من أهمها في العصور الأولى لزراعته الذرة الحقيقية أوحشائش البانيك Panic grass أو (Panicum miliaceum)، والذرة الايطالي Setaria Italica . وقد زرعت حشائش البانيك أولا في الهند ووسط آسيا إذ كانت زراعته تكون الأساس الاقتصادي للمزارعين الأوائل في الصين . ويبدو أنه قد انتشر غرباً من طريق أوكرانيا والدانوب إلى سويسرا والمانيا وفرنسا. هذا وقد انحدرت الذرة الأيطالي من نوع S. Viridis الذي كان ينمو بريا في غرب آسيا على طول البحر الأبيض المتوسط وفي بعض اجزاء أخرى من أوروبا . وهذا النوع من النباتات المحبة للمناخ الدافىء المعتدل . وفي الحقيقة حل القمح والشعير محل الذرة في المناطق المعتدلة ، وهو ما زال يمثل أهمية كبيرة في المناطق المدارية حيث لا يعمر هناك القمح .

الشيلم والشوفان

في خلال العصر الحجري الحديث كانت هذه الحبوب موجودة على هيئة نباتات برية ؛ وكانت زراعتها لا تمثل أهمية اقتصادية كبيرة في الفترة السابقة للألف سنة الأخيرة قبل الميلاد .

الذرة Maize

لقد درس أصل الذرة وتاريخه الأول دراسة مستفيضة في الفترات الحديثة الأمر الذي أدى إلى تغير سريع في الآراء الخاصة بتاريخه . ولعل من أهم الآراء التي استطاعت أن تقاوم كل النظريات المنافسة لها هو أن إنتاج الذرة قد نشأ في الامريكتين ، وأنه لم يكن معروفاً في العالم القديم في فترة ما قبل اكتشاف كولومبيا .

وأوضح النظريات التي رجحت باستمرار ولقيت تعضيداً من الأثريين حالياً ومن مكتشفي الأدلة القديمة هي النظرية التي تذكر أن الذرة قد نشأ من أصل بري وكان في فترة ما Pop corn (ذو بذور صلبة) وذرة ذوقرن Pod-Corn ، تمتاز كل حبة منها بأنها مغلفة في قشرتها. وفي حالة الذرة المكتملة النمو (Zea mays) لا توجد قنابع Glumes إذ أن القشرة التي تغلف الحب اتصلت بقولحة صلبة وغلفت بورقة محكمة أو قرن ومثل هذا النوع لم يستطع أن يعمر في الطبيعة إذ أن البذور لا تنتشر بل لا بد من بذرها صناعياً . وفي النوع البدائي (ذو القرن) ربما نمت الحبوب على عود رفيع في مكان القوالح الذي كان من السهل انكساره حينما تلعب به الرياح أو الطيور ومن ثم تتناثر بذوره (شكل ٩)

وترى نظرية أخرى أن الأصل البري للذرة لم يكن — كما ذهب البعض — ذرة المكسيك Zea Mexicana أو Tripsacum. وقد أيدت هذه النظرية باكتشاف بتلات نبات الذرة على بعد ٢٠٠ قدم تحت مدينة المكسيك ، ويرجع تاريخها من الناحية الجيولوجية على الأقل إلى الف سنة مضت . وهذا النوع من الذرة Pod-corn قد أيد أركيولوجيا عن طريق العثور على قوالح بدائية وقديمة ، وعن طريق بعض الرسوم التي وجدت على فخار ما قبل التاريخ ، إذ عثر على قوالح في أقدم مستويات كهف بات بنيومكسيكو وعن طريق التحليل الكربوني ١٤ أعطى تاريخ تقريبي لها حولي ٣٦٠٠ ق.م.

وينطبق هذا الكلام على ثاني أقدم الأنواع وهو قمح cobs الذي وجد في كهف لا بيرا La Perra ، وتاماو Tamauloipas والمكسيك ، والذي أحدث عمراً من النوع الأول (١) — وكما تشير الأدلة الفخارية ، وبعض القدر التي عثر عليها في وسط وجنوب أمريكا ولا سيما قدر القهوة الجنائزية Funerary urn إلى أن قمح حضارة زابوتيك المكسيكية Mexican Zapotec culture. يشبه لدرجة كبيرة الذرة ذا القرن . ويؤكد نوع زابوتيك نتيجة هامة أمكن

---

(١) أحدث بحوالي ألف سنة .



شكل (٩) — تطور نبات الذرة في أمريكا

تطور نبات الذرة :

أ — ذرة بري .

ب — حـ — تحسن بالزراعة .

د — بعد فقدان وحدات الوراثة الخاصة بقرن الحب .

هـ — زادت مسافة الزهرة الذكرية .

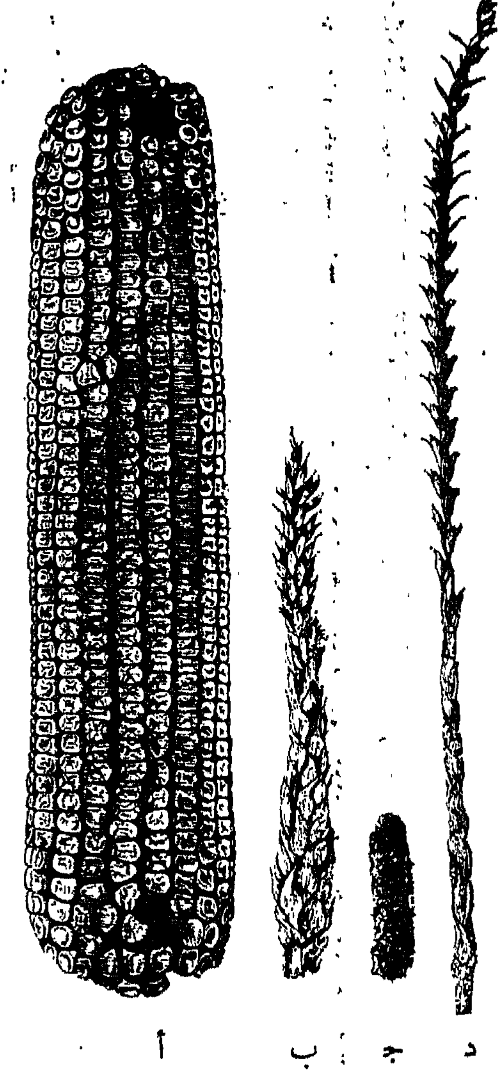
و — ذرة حديث من نطاق الحبوب في الولايات المتحدة .

التوصل إليها بطريقة ماهرة لاختيار تهجينات متأخرة . هذا التهجين الذي يرجع إلى النوع البدائي يشير إلى أنه في شكله الأول كانت الزهرة المذكرة Male Flower – والتي تنمو في الذرة في الوقت الحاضر منفصلة عن قمة الجذع – كانت توجد مباشرة فوق الزهرة المؤنثه Female Flower حيث توجد هنا السنابل (شكل ١٠) .

ويبدو أن الرأي الخاص بانحدار ذرة Zea mays من ذرة آخر بري ذي قرن قد أيدته عدة اتجاهات . وقد صاحب هذا الرأي الاعتقاد القائل بأن ذرة Teosinte لا يمكن أبدا أن تكون هي أصل الذرة . وفي الواقع كان نتيجة لتهجين طبيعي بين نوعي الذرة السابقين أن زرع بالفعل ذرة Tripsacum وقد أعقب هذا التهجين أن بدأ الذرة يتداخل مع شتلاته . الأمر الذي أدى في النهاية إلى أحتواء بعض الأنواع الحديثة من الذرة على عنصر ذرة Teosinite . ويؤيد هذا التعليل أنه في أثناء الحفر تحت مدينة المكسيك وجدت بتلات زهرة الذرة وTripsacum على بعد ٢٠٠ قدم . بينما وجدت ذرة Teosinte على الرواسب السطحية فقط . وأيضاً في كهف بات عثر على قرون بدائية صغيرة تبدو أنها من أصل ذرةZea mays وجدت في قاع المحلة بينما في المستويات الأكثر أرتفاعاً يظهر عنصر ذرة Teosinte .

ولا نعرف أين ومتى بدأت زراعة الذرة ، فقد ساد الاعتقاد أن حتى وقت قريب أن الأصل البري للذرة كان موجوداً في الأراضي المنخفضة بأمريكا الجنوبية (حيث ما تزال مزدهرة هناك أنواع مختلفة من الحبوب ذات القرون) وأنه أول ما زرع زراعة كاملة كان ذلك في الأنديز .

وعلى أي حال فتدحض أثار كهف بات هذا الرأي إذ أن أقدم كوز ذرة عثر عليه هنا كان حجمه مثل حجم ظفر أصبع المرأة ، وهي بدون شك بدائية جداً ، وربما كانت في المراحل الأولى للزراعة . وإذا كان تأريخ التحليل الكربوني « ١٤ » لعام ٣٦٠٠ ق.م. صحيحاً وأنه ليس تقريباً فلا بد وأن يكون هو أقدم أنواع الحبوب المعروفه . وكوز الذرة الذي عثر عليه في



شكل (١٠) — تطور الذرة في أمريكا

أ ذرة حديث .

ب — الشكل القديم للذرة .

حـ — كوز ينتمي لعصر ما قبل التاريخ بمعنى الكلمة من كهف لا بيرا La perra

د — نوع آخر من ذرة Tripsacum .

كهف لا بيرا بالمكسيك أيضاً قديم ولكن يختلف عن ذلك النوع الموجود في مواقع أمريكا الشمالية في عدد من الصفات النباتية . وعلى الرغم من أنه لم يعثر حتى الآن في الأراضي المرتفعة بالأنديز على أنواع قديمة إلا أن عدم وجودها لا يجعلنا نهمل المناقشات القديمة التي تجعل أمريكا الجنوبية وطناً أصلياً للذرة . ولعل خير تفسير هو أننا نستطيع — هنا أيضاً — أن نعتنق فكرة الانتشار أو النمو المستقل في مراكز منفصلة . هذا وما زالت المرحلة متقدمة لكي نقرر بالأيجاب أو النفي إذا كان الوطن الأصلي وجد في جنوب أو وسط أو جنوب غرب أمريكا الشمالية .

النباتات الجذرية :

كونت الجذور البرية عنصراً هاماً لغذاء الإنسان لفترة طويلة من الزمن غير انه من الصعب تتبع المراحل الأولى لزراعته . والنبات الوحيد الذي أمكن تتبعه من نباتات العصر الحجري الحديث هو الجذر Carrot الذي عرف في المنطقة الممتدة من سويسرا وحتى ألمانيا . وقد انحدر من تهجين نوعين بريين هما Daucus carota و Daucus maxima ،ولا بد وأنه قد نشأ فيأقليم يكون فيه النطاق الطبيعي لهذين النوعين متداخل . مثل إقليم البحر الأبيض المتوسط . وقد زرع الفجل بكثرة في المملكة المصرية القديمة ولا بد وأنه كان يستخدم هناك في الطعام في فترات ما قبل التاريخ .

الفاكهة والجوز واشجار الزيوت النباتية .

كانت الفاكهة البرية مثل النباتات الجذرية تجمع باستمرار بواسطة الرجال رغم أنها كانت في الحقيقة أكثر أهمية لأجداده ساكني الأشجار (١) . وعلى أي حال لم تعرف الزراعة بسرعة الفاكهة التي كان من الممكن تمييزها من أشكالها البرية . ولهذا فليس من السهل أن نتتبع التاريخ الأول لحضارة

(١) تتضمن هذه فكرق الأصل المشترك بين القردة العليا والعائلة الإنسانية Hominidae التي ينتمي إليها الإنسان العاقل . المترجم

البساتين Orchard culture . فالتفاح الذي أكله الدانوبيون كان أصغر حجماً من ذلك النوع الذي ينمو بريا في ألمانيا .

ويبدو أن سكان بعض قرى البحيرات السويسرية في أواخر العصر الحجري الحديث كان لديهم تفاح أكبر حجماً ، وربما توصلوا إليه عن طريق زراعة نوع آخر من التفاح الأوروبي البري Malus Sylvestris . وقد أكل الفلاحون أيضاً الكمثري إلى جانب البرقوق الصغير والكريز الذي ربما كان ينموا برياً . ويعتقد (بدون أدلة كافية للأثبات) أن الدانوبيين أحضروا الكريز Cherry - pulm إلى وسط أوروبا حيث اختلط بالبرقوق الأسود Sloe ونتج عن ذلك مجموعة البرقوق المزروعة حالياً .

وقد ظهر عين الجمل Walnut برياً كأشجار غابية في المنطقة الممتدة من اليونان عبر آسيا الصغرى فأيران والهيمالايا إلى الصين ، غير أنه يشك في أن هذا النبات قد حصد رغم وجوده ضمن محتويات العصر الحجري الحديث في أوروبا إذ عثر على قشوره في بعض محلات البحيرات السويسرية المتأخرة وفي المانيا . ونظراً لأن هذه الأشجار لا تنموا طبيعياً إلى الشمال من جبال الألب . فقد اعتقد أن سكان البحيرات قد أحضروها إلى هنا وزرعوها . أما جوز Pistachio nuts فهو الجوز المفضل في الشرق الأوسط وكان مغروفاً في جرمو .

ولقد ذكر فيما سبق أن أول مثل لزراعة الزيتون كان بين سكان العصر الحجري الحديث في الجارسل El - Garcel في جنوب شرق أسبانيا . وأصول هذه الشجرة المهمة من الناحية الاقتصادية لدول جنوب أوروبا غير مؤكدة ، ولكن ربما تكون شجرة أسيوية . وقد أمكن تتبعها في مناطق انتشارها حتى الأنواع البرية منها « Olea Chrysophylla » التي توجد أصلا جنوب الصحراء في أفغانستان وبلوخستان وغرب الهند .

ومن المؤكد أن شجرة الزيتون زرعت في بداية العصر التاريخي في الطرف

الشرقي للبحر الأبيض المتوسط حيث كان الزيت يصدر إلى المملكة المصرية القديمة من فلسطين وسوريا . وربما لم يكون للزيتون أي أهمية في العراق أو إقليم السند إذ كان السمسم هو مصدر الزيت هناك في العصور التاريخية .

أما الفول والبسلة وغيرها من الحبوب القرنية Leguminous Seeds فكانت غذاء قيماً للانسان . فهي سهلة الأكل والتخزين كما أنها تحتوي على نسبة كبيرة من البروتين . فبسلة الحقل (١) ربما انحدرت من أنواع برية Pisum elatius كانت تنمو عبر العالم القديم من البحر الأبيض المتوسط وحتى التبت . والبسلة والعدس أكلت في جرمو ، كما وجدت البسلة البرية بين حبوب مرمدة ، غير أن هذا النبات لم يزرع كثيراً في مصر . وعلى أي حال فقد زرعه الدانوبيون الذين أحضروه إلى وسط أوروبا .

وقد كان الفول عظيم الأهمية للانسان القديم في الأمريكتين حيث كانت اللحوم نادرة أو غير موجودة . وفي الواقع أنواع عديدة من فول الحدائق في الوقت الحاضر ذات أصل أمريكي ، فأنواع برية مختلفة نمت في نطاق الأنديز من ناحية وفي أمريكا الوسطى من ناحية أخرى . ففول المكسيك Tepary bean لم يكن معروفاً في الجنوب بينما فول ليما المكسيمكي Phaseolus microsperma نوع متميز هناك .

كما أن فول Phaseolus vulgaris و Phaseolus muiltifloros كانا نوعين معروفين أيضاً للاقليم ، ولكن الأنواع الهامة الصفراء معروفة على وجه الخصوص في الجنوب . ولا يوجد دليل أثري يشير للزراعة الأولية لفول الصويا كمحصول غذائي هام في الصين واليابان. أما في أوروبا فكان النوع السائد في فترة ما قبل التاريخ هو الفول العريض Vicia Faba الذي يبدو أنه انحدر من فول بري أصله في شمال إفريقية Vicia pliniana .

ولذلك ليس بغريب أن نجد أنه دخل إلى أسبانيا في خلال العصر الحجري

---

(١) ظهرت بسلة الحدائق بواسطة الطفرة .

الحديث حيث انتشرت زراعته بسرعة نحو الشمال إلى جزر القنال الانجليزي وجنوب شرق فرنسا . وبالإضافة إلى ذلك الطريق الجنوبي للانتشار لأوروبا والقادم من أفريقية دخل الفول ايضاً إلى أوروبا عن طريق الدانوبيين الاول الأمر الذي يوحي إلى احتمال زراعته في البلقان وآسيا الصغرى .

الكوسة وقرع العسل :

رغم أن هذه النباتات كانت تمثل عنصراً أقل حيوية من الذرة والف في غذاء الأمريكين الأوائل إلا أن الكوسه قد زرعت على نطاق واسع بينهم وكما هو الحال بالنسبة للفول يوجد تقسيم واضح للأنواع التي تنمو في الأنديز وتلك الأنواع التي زرعت في الشمال . ففي بيرو كان القرع المحبب للأهالي هو Cucurbita maxima ؛ هذا النوع الذي لم يكن معروفاً في إقليم المكسيك وأمريكا الوسطى لأن السيادة هنا كانت لنوع آخر وهو Cucurbita mixta.

أما قرع العسل Lagenaria Siceraria فيتميز بصفتين رئيسيتين أولهما أنه هو النبات الوحيد الذي زرع لاستخدامه في صناعة الأواني « الفازات » ، كما أنه النبات الوحيد الذي على درجة كبيرة من الأهمية في ربط مزارعي العالم القديم والجديد في الفترة السابقة لإستعمار كولومبيا . ومن المؤكد أن وطنه الأصلي وجد في الأقاليم المدارية في العالم القديم وأنه حمل إلى أمريكا عن طريق تيارات المحيط .

وهذا التعقيب المبني أساساً على استخدامه في صناعة الفازات التي صنعها الدانوبيون في المجر حيث لا ينمو هناك برياً دليل–جنوبي وعلى وجه الخصوص– أناضولى أثر في حضارتهم .

الكتان .

زرعت مبكراً الأنواع المختلفة من الكتان لاستخدام زيت بذوره وكذلك لاستخدام أليافه . ولقد زرع المصريون في العصر الحجري الحديث كتاناً

Linum usitatissimum (البداري والفيوم) ، كما عثر أيضاً في ... ط الأناضول في مستوى أرجع تاريخه إلى ٣٠٠٠ ق.م. على أنواع مختلفة من كتان Linum ترجع في أصلها إلى أوروبا، ويشك أنها كانت الاصل الذي انحدر منه زراعة كتان من نوع Linum bienne . هذا النبات قد زرعه الدانوبيون في جنوب شرق أوروبا . وربما استطاعوا أن ينشروا زراعته إلى الغرب والشمال ، كما زرعه أيضاً سكان البحيرات السويسرية الأوائل ووصلت زراعته إلى اسكنديناوة قبل نهاية العصر الحجري حديث .

الحيوانات المستأنسة

لا يعرف حتى الآن ما هي المراحل الأولى التي سبقت أستئناس الماعز البري والماشية والأغنام والخنازير ، ويبدو أن هذا الأمر لم يفهم تماماً . وعلى أي حال توجد عدد من النظريات وأقلها قبولا هي تلك النظرية التي تنادي بأن الخطوة الأولى لإستئناس الحيوان أخذت مباشرة من ممارسة الصيد ولا سيما بالقبض وترويض الحيوانات لاستخدامها كطعام . ولقد اعتقد أن هذه النظرية صحيحة بالنسبة للرنة .

وهناك نظرية أخرى تناقض النظرية السابقة وتعتمد على أن النساء أحدثن تقدماً ملحوظاً في الزراعة الأمر الذي ترتب عليه وجود فائض من الطعام سمح باطعام الحيوانات الجائعة . وقد اقترح بعض الباحثين أنه عقب انتهاء الفترات الجليدية . ونتيجة للظروف المناخية المصاحبة لهذا التغير تركزت الحيوانات البرية أكثر وأكثر تحت تأثير الإنسان وسيطرته. والتفسيران ... ويمكن ضمهما لبعض .

ولقد شاءت الأقدار أن تكون مناطق آسيا الصغرى التي كان ينمو فيها

الأصل البري للقمح والشعير هي نفس الأماكن التي عاشت فيها الأغنام البريه والماعز والماشية والخنازير . إذ استطاعت زوجات الصيادين المشتغلات بالزراعة أن تقدمن بعض الشيء إلى بعض الحيوانات التي اصطادوها كبقايا الحبوب والحشائش . وبازدياد اقتراب الحيوانات وملاءمة حياتها للواحات الموجودة بالصحراء أعطت للرجال فرصة معرفة عاداتهم الأمر الذي جعلهم يحاولون ترويضهم بدلا من قتلهم ومن ثم جعلوهم يعتمدون عليهم . وقد وضع أحد الباحثين (١) تتابعاً زمنياً تقريبياً لأستئناس المجموعات المختلفة . الأولى مرحلة العالة أو الاعتماد على الغير Scavengers مثل الكلب والثانية الحيوانات الرعوية مثل الرنة والماعز والأغنام . والثالثة الحيوانات اللازمة للحياة المستقرة وأساسها الماشية والخنازير وأخيراً الحيوانات التي تستخدم في النقل وتشمل الحصان والحمار واللاما . وبينما أصبح من المؤكد أن استئناس الكلب قد تم في العصر الحجري المتوسط ، والحصان بعد نهاية فترة العصر الحجري الحديث نجد أن التمييز بين القسمين الآخرين « الحمار واللاما » أمر مشكوك فيه .

وعلى أي حال لا بد أن نتذكر أنه عثر في كهف بلت في شمال أيران على الأغنام والماعز المستأنسة في محلات قبل صناعة فخار العصر الحجري الحديث الأولى ، وأنه عن طريق التحليل الكربوني ١٤ أرجع تاريخها إلى النصف الأول من الألف السادسة ق.م. بينما الخنازير الأولى التي عرفت في العالم والماشية — لم تظهر في نفس المكان حتى نهاية العصر الحجري الحديث — أرجع تاريخها إلى النصف الثاني من نفس الالف .

وبالرغم من أن الأدلة الأركيولوجية تؤيد أسبقية استئناس الماشية والأغنام إلا انه من المحتمل أن يكون ذلك وضع محلي خاص ولذلك يجب عدم الاعتماد عليها كثيراً . هذا وقد ذكر سابقاً في أثناء المناقشة العامة لمواطن طريقة حياة العصر الحجري الحديث أنه من الخطأ أن ننظر إلى مركز معين لنحدد الوطن

(1) V. Gorden Childe, New Light on the most Ancient East

الأصلي . وبالمثل في حالة الحيوان فقد نجح الإنسان في مطاردة بعض الحيوانات في عدد من المناطق وبطرق مختلفة .

وفي مجال دراستنا لا بد أن نبحث باختصار النواحي البيولوجية لأستئناس الحيوان . فالحيوانات التي كونت القطعان الأولى في مواطن الزراعة وتلك التي دخلت أو وفدت إلى أوروبا في فترة متأخرة كانت في العادة أصغر كثيراً من الحيوانات المفترسة المجاورة . وقد كانت الماشية وعلى وجه الخصوص من نوع Bos Longiforns صغيرة مثل حيوان الكيري Kerry الحديث . والتفسير المقبول دائماً هو أنه مهما اختار الإنسان اقزام الحيوانات من بين المجموعة المتوحشة إلا انه استطاع ان يستمر في تهجين حيوانات اصغر وأضعف وأكثر وداعة . ولم يحدث الاستئناس الكامل للحيوان إلا في فترة متأخرة حينما استطاع أسياده البشر تهجين أصل جديد من السلالات الكبيرة المتوحشة ، ومن اختيارها من حيث الحجم والوزن . ومعظم التغيرات الجسمانية التي طرأت على الحيوان عند استئناسه كانت راجعة لاختيار سلالات معينة كازدياد اغنام الصوف على سبيل المثال .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يبدو أن هناك اتجاه على الأقل بين الكلاب والخنازير لكي يكون الأنف والفك والفم قصير ذلك إلى جانب اكتساب الوان معقدة ذات ظلال طبيعية كنوع من الحماية الطبيعية .

الأغنام والماعز .

على الرغم من مقدرة الإنسان على معرفة الاختلافات الكثيرة بين الأغنام والماعز إلا أنه من الصعب التمييز بين المجموعتين اللتين توجدان تحت عائلة Caprinae وذلك على أساس بقاياهم الهيكلية التي لا تظهر سوى اختلافاً طفيفاً جداً في العظام التي حول العين وهو الدليل الوحيد الممكن الاعتماد عليه بينهما . ومن الناحية العملية –كما سبق ان ذكرنا – ثبت أنه من المستحيل في

معظم الاحيان أن نحدد بدقة في أي مكان استأنس سكان العصر الحجري الحديث الماعز أو الأغنام أو كلاهما معاً .

ويبدو أن كل الأغنام المستأنسة حالياً قد انحدرت من ثلاثة انواع معمرة من اغنام Ovis البرية . وأكثر هذه الأنواع أهمية اليوريال Urial الذي ربما استأنسة اصلا الرعاة الاوائل في جنوب غرب آسيا .

وقد كان لأغنام اليوريال انتشاراً واسعاً في آسيا امتد من جبال البرز وحتى هضبة التبت . وقد امتازت هذه الأغنام بفراء بني ذات خط داكن على طول الظهر الكثيف الصوف بعكس البطن التي تبدو عارية منه .

أما عن الرام Ram فكان لها قرون طويلة منحنية إلى الأمام أو الخلف ، بينما كانت قرون الايوي ewe مدببه صغيرة تشبه قرون الماعز . وإذا كانت هذه السلالة قد استأنست أولا في أقاليم جنوب البرز كما يظهر من البقايا الحيوانية الأولى التي وجدت في كهف بات فمن المؤكد أيضاً أن هذا النوع لا بد وأن يكون أول الأنواع التي حملت غرباً مع الاقتصادي الزراعي إلى أوروبا حيث مثله حيوان O. Aries palustris المشهور باسم اغنام Turbary في البحيرات السويسرية . والحقيقة كانت هذه هي السلالة التي رباها معظم فلاحي أوروبا في العصر الحجري الحديث .

وأغنام الموفلون Ovis musimon نوع آخر من الأغنام التي استؤنست وكان إنتشارها نحو الغرب أكثر من أغنام اليوريال . وتعيش في الوقت الحاضر أنواع مختلفة منه في جنوب أوروبا (صقلية وكورسيكا وسردنيا) ، ولا بد وأن أوطانهم كانت أكثر اتساعاً عن الوقت الحاضر . وقد وجد هذا النوع أيضاً في قبرص حيث تمتد منطقة توزيعه شرقاً إلى أواسط الأناضول وشمال إيران .

ويشبه الموفلون إلى درجة ما اليوريال من حيث مظهره غير أن فراءه داكن نوعاً ما ولونه بني محمر . ولا يعرف المكان الأول الذي استؤنس فيه

الموفلون ولكن بدون شك دخل أوروبا في تاريخ متأخر عن أغنام تورباري إذ أنه لا يظهر في قرى البحيرات السويسرية حتى نهاية العصر الحجري الحديث الخاص بهم .

وتمثل أغنام الارجالي Argali نوع بري ثالث له صلة بالأغنام الموجودة الحالية ويوجد أصلا في الأراضي المرتفعة في وسط آسيا ، وهو حيوان كبير جداً ذو قرون طويلة تنحني إلى الأمام على هيئة دائرة . ومن المحتمل أن حيواناً قوياً كهذا لا يجد مكاناً بين الجماعات الأولى المستأنسة من الحيوانات . وأقدم السجلات التي تشير إلى وجوده توضح أنه جاء نتيجة لاختلاطه مع أغنام اليوريال في أناو Anau مع قرب نهاية العصر الحجري الحديث. وبالتأكيد بعض عناصر أغنام الارجالي قد انتشرت صوب الغرب لتظهر في سلالة المارينو . وقد عثر في رواسب نهر التيمز التي ترجع إلى عصر البرونز على حيوان نقي من أغنام الارجالي .

هذا وما زال ذكر شيء مقبول عن استئناس الماعز أمراً مستحيلا . وربما كان هذا الحيوان الأول من نوعه في إعطاء الإنسان ألبانه . على أي كانت ماعز البذوار Bezoar في التركستان وافغانستان أهم الأنواع التي انحدرت منها .

أما الأغنام ذات القرون الكبيرة Big horn فهي أغنام برية في العالم الجديد . ولم تستأنس بعد ، كما أن الأغنام لم يربها سكان ما قبل فترة اكتشاف كولومبيا بأمريكا .

الماشية :

يعتقد أن كل سلالات الماشية ذات الذيول قد انحدرت من النوع البري Bos Primigenius أو Aurochs الذي كان وطنه السهول الممتدة من جنوب روسيا إلى المحيط الاطلسي . وذكور هذا النوع ضخمة تحمل قروناً عريضة منتشرة .

أما البقرة كما تظهر بوضوح في كهف Lascaux فكانت قرونها أخف كثيراً وأقل حدة في الانحناء .ورغم أن هذه القرون لا تبدو صغيرة إلا أن الماشية ذات القرون الصغيرة Bos brachyceros أو Bos Longifrons كونت قطعان بعض فلاحي العصر الحجري الحديث الموجودين في المناطق الرئيسية في جنوب غرب آسيا وفي مصر وفي أوروبا . وعلينا في الوقت الحاضر أن نتقبل الرأي القائل بأن هذه الماشية الصغيرة أمكن الحصول عليها عن طريق تفضيل أقزام وصغار الحيوانات . فتكرار الاختلاط مع ماشية Aurochs هنا وهناك — كما هو الحال في بريطانيا — أخذ مكاناً بالتأكيد في هذه الازمنة المبكرة . كما أنها أخذت بالتالي مكاناً بالتأكيد في بعض المناطق التي تسود بها سلالات الثيران الثقيلة ذات القرون الطويلة والتي ما زالت تجز العربات وتحرث الأرض في مناطق متعددة من العالم القديم . هذا وما زالت توجد بعض سلالات أقوى من ماشية Primigenius تعمر في جيوب صغيرة في مناطق منعزلة كالمناطق المرتفعة الخاصة بتربية الماشية باسكتلنده .

ومما هو جدير بالذكر أن ماشية الزبو Zebu ذات الالية قد ربت في أحد المواقع المرتفعة في بلوخستان والتي تكونت قبل قيام مدينة السند بحوالي خمسمائة عام . وكان ذلك في راناغونداى Rana Ghundai في وادي زوب Zhob حيث توجد بقاياه العظمية بين مخلفات أقدم محلة . ويظهر أن هذا الموقع كان معسكراً لرعاة ماشية بدويين إلى حد ما .

ولقد وجدت رسوم دقيقة لماشية الزبو على فخار بعض المواقع القديمة لقرى هذه المرتفعات . ولا نعرف أنواعاً برية من الماشية ذات لية إذ يبدو أن التطور نحو تخزين شحوم أكثر في ليه الأغنام جاء مع الأستئناس .

الخنازير :

على الرغم من أن الخنازير قد وضعت — كما ذكر سابقاً — مع الماشية في

التقسيم النظري للحيوانات المستأنسة وذلك كمقتضيات لحياة الزراع المستقرين ، إلا أنه ربما جذبت الخنازير في بادىء الأمر إلى المحلات العمرانية كحيوانات معتمدة . ومن المحتمل أن سلالتين بريتين قد استؤنستا تماماً رغم اختلاطهما في وقت متأخر .

فالخنزير البري المعروف الذي رسم بجميع صوره الوحشية بواسطة بعض رسامي العصر الحجري القديم يمتد وطنه عبر أوروبا وشمال إفريقية إلى وسط آسيا وحتى سيبريا . هذا هو خنزير Sus scrofa الذي لا بد وأن يكون أقدم الخنازير المستأنسة المعروفة والتي من بينها الخنازير التي عثر عليها في مواقع العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا ومصر وأوروبا . أما عن خنزير توربري الذي وجد بقرى البحيرات السويسرية فيعرف في بعض الأحيان باسم Sus Scrofa palustris . وهناك أصل ثان للخنازير يتمثل في الخنزير البري المعروف باسم Sus Vittatus ذي الأنف القصير جداً والموجودة في جنوب شرق آسيا . هذا النوع يكون أصل الخنازير التي رباها الصينيون الأوائل .

اللاما والالبكا :

لا يعرف إلا القليل جداً عن استئناس هذين النوعين اللذين ينتميان للجمل واللذان يعتبران من الحيوانات المستأنسة الكبيرة في العالم الجديد . وكما سبق أن ذكرنا تنحصر مناطقها في الاراضي المرتفعة بأمريكا الجنوبية . ولابدوأن اللاما قد انحدرت من حيوان الجوانكو البري ، ومما هو جدير بالذكر أن فراءه يظهر ميلا قوياً نحو الألوان الداكنة المنقطة والتي تظهر في الحيوانات المستأنسة في العالم القديم .

ويبدو أن الأصل البري للالبكا قد انقرض اللهم إلا إذا كان هذا الحيوان هو نتيجة لاختلاط الجوانكو والفيكونا Vicuna . ومن الممكن القول بأن

اللاما استؤنست جزئياً فقط في الأزمنة القديمة كما هو الحال الآن ، إذ أنها ربما وجدت طعامها وماءها وتناسلها بعيداً عن المناطق المحيطة بالإنسان . على أي حال لم تستأنس اللاما والابكا لدرجة تسمح باستخدامهما للحصول على الالبان .

الحصان والجمل :

وجدت عظام الحصان في بعض الاحيان بين مخلفات مواقع العصر الحجري الحديث في كل من أوروبا وآسيا . أما الجمل فقد وجدت بقاياه في مواقع معينة في تريبولي Tripolye . وتظهر بقايا الجمل والحصان في مستوى واحد قديم في دانا غونداى ببلوخستان ، في نفس المستوى الذي يحتوي على بقايا ماشية الزبو .

وهناك جدل بسيط حول قصة استئناس حيوانات النقل التي تنتمي في جزء كبير منها إلى المرحلة الأخيرة من تاريخ البشرية .

طرق الزراعة

كان الأساس الاقتصادي الرئيسي للعصر الحجري الحديث هو زراعة قطع صغيرة من الأرض بواسطة العصى المعقوفة أو بعصى الحفر حول القرية أو الأكواخ ، ورعي قطعان الماشية والأغنام في المناطق غير المزروعة المحيطة بهم . وقد تطور الجزء الأكبر من هذه الزراعة الأولية في التربة الخفيفة بالأراضي المرتفعة أو على تربة اللويس الخفيفة المنتشرة وعلى الأراضي الصفراء .

ففي مصر كان فلاحو العصر الحجري الحديث يزرعون بالتأكيد محاصيلهم على سهول النيل الفيضية المتجددة ، أما حيث توجد الصحراء كان عليهم الاعتماد أكثر وأكثر على الأودية الجافة من الري . وبواسطة الزراعة الأكثر انتظاماً في مناطق السهول الفيضية في العراق. (سكان العمره والعبيد) انتهت

الفترة الحقيقية للعصر الحجري الحديث . وربما اعتمد هؤلاء كما فعل من قبلهم سكان جريكو وغيرهم من سكان الواحات المجاورة في الزراعة على نبع ماء أو رافد نهري صغير . إذ أن الري المنظم كاستخدام المحراث ينتمي إلى المرحلة التالية للتقدم الزراعي للإنسان .

وقد رأينا في الفصول السابقة أن من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انتشار الزراعة نحو الشرق وعلى وجه الخصوص أيضاً نحو الغرب هو إجهاد التربة والحاجة إلى تنظيف أرض جديدة . ففي مراكز العمران الأولى بجنوب غرب آسيا وجنوب شرق أوروبا سكن القرى أجيال وأجيال من البشر إلى أن تراكمت بقاياهم ومنازلهم المهدمة على هيئة تلال . أما كيف حدث ذلك بالنسبة للأقاليم المرتفعة حيث لا يوجد هناك تجديد طبيعي للتربة عن طريق أنهار رئيسية فهذا موضوع تجنب الباحثون الحديث فيه دائماً .

ويبدو أن هؤلاء الفلاحون لا بد وأنهم عرفوا كيف يستخدمون السماد وذلك عن طريق وضع حيواناتهم في حظائر أو زرائب أو عن طريق تنظيم محاصيلهم في دورات زراعية . ولا يوجد دليل حتى الآن لإحدى الطريقتين غير أنه في قرى البحيرات السويسرية والتي تبدو أنها أكثر استقراراً من معظم محلات العصر الحجري الحديث الغربية لوحظ وجود علامات لجمع السماد .

وعلى طول امتداد الأراضي الزراعية المتسعة كانت الطريقة العامة للزراعة هي إجهاد الحقول والتربة التي كان يستمر فيها العمل إلى أن تنتهي وتضمحل ومن ثم يبدأ في تطهير قطعة أرض جديدة . وقد أمكن الوصول لأمثلة واضحة لتطهير وانحلال الأرض في الدانمارك عن طريق تحليل بتلات الزهور . فقد كان الفلاحون الأوائل هناك يطهرون نوعاً من الأراضي التي تبدو دائماً أنها كانت تنتمي إلى تربة اللويس للدانوبيين والتي غطت الغابات النفضية . وقد أجريت دراسات في مستنقعات الدانمارك ووجد أنه في أماكن عديدة في الفترة ما بين اتلانتيك والفترة الشبه بارده Sub-Boreal كان هناك

تغير مفاجيء في نباتات الأقاليم فالاشجار الغابية تحولت بسرعة إلى نباتات حشائش ومن ثم فقد حدث على وجه السرعة تطهير الغابات السائدة . وفي نفس الوقت لقد لوحظ أن الطبقات الافقية للفحم في المستنقع — حيث اكتشفت بتلات الحبوب المزروعة والنباتات البرية — توجد عادة في أقاليم مجاورة للقرى والمنازل . هذا التطهير قد حدث في فترات مختلفة قليلاً من الناحية الزمنية في المناطق المختلفة التي درست . ومن الممكن تتبع عودة الحياة الغابية من جديد في مستنقعات البيت إذ ظهر بعد التدمير المحلي لهذا النوع من الحياة النباتية أشجار الصنوبر Brich التي نمت بسرعة وأعقبها بعد ذلك أنواع أخرى وتوالى الأمر إلى أن تكون المظهر الحالي (١) .

وفي إحدى المستنقعات أمكن إيجاد عدد من الطبقات التي نظفت وزرعت ، والطبقة الأولى منها ضعيفة نوعاً ما ولكن بعد ذلك تكون الطبقات الأكثر وضوحاً وبالتالي أقدمها عمراً . وقد ساد الاعتقاد أن الغابات أبيدت أو طهرت بواسطة النار والفأس وذلك للحصول على مرعى وغذاء للحيوانات وأيضاً لإعداد التربة للمحاصيل . غير أنه من المؤكد أنه لم تكن مزارع مطهرة بالنيران كما هو الحال في مزارع نطاق الغابات الصنوبرية في Carelia . ويرجع تاريخ هذه الطبقات إلى المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث في الدانمارك وليس إلى أول هجرة معروفة للمزارعين .

وهؤلاء يعطون صورة بديعة لأحوال الزراعة التي مورست في مناطق غابية في العصر الحجري الحديث . ومن ثم فقد أدى العثور على بتلات زهور الحبوب على طول حدود المناطق المزروعة في العصر الحجري الحديث إلى إزاحة النقاب عن عالم قديم راوده النسيان .

C.J. Becker, The introduction of Farming into northern Europe, Paper Contributed For the Journal of world History. February, 1955.

وقد كان تخزين الحبوب لأجل بذورها واستهلاكها في الشتاء يمثل أهمية كبيرة لمجتمعات الفلاحين في العصر الحجري الحديث . وفي الحقيقة كان هذا هو العامل الرئيسي الذي جعل زيادة سكانه ممكنة في كل منطقة عرفت الزراعة . أما عن المناطق الجافة كمصر مثلاً فقد صنعت حفر لتخزين الحبوب وبطنت بواسطة سلال تحت الأرض كما هو الحال في الفيوم ، ذلك إلى جانب استخدام السلال والاواني الفخارية الكبيرة .

أما عن الدانوبيين وبعض الجماعات الزراعية الأخرى التي عاشت ابان العصر الحجري الحديث في مناطق تستقبل قدراً من الأمطار فقد صادفوا صعاب كثيرة في بناء مخازن متينة للحبوب . وربما كانت الحبوب تدرس على الأرض في القرية أو بالقرب منها حيث استخدم التبن كعلف للحيوانات أو كمادة لتنجيد فراش ينامون عليه .

ويبدو من الناحية النظرية أنه لا بد من وجود فترة تمهيدية أو أولية ربت فيها الحيوانات من أجل لحومها وجلودها وربما أيضاً من أجل صوفها وشعرها ، ولكن ليس من أجل البانها . ولسوء الحظ لا يعرف شيء عن تاريخ بداية حلب الحيوانات واستخدام ألبانها في صناعة الجبن وغيرها من منتجات الألبان.ولا تعرف أيضاً إذا ماكانت هذه العملية مورست بالفعل أو لم تمارس بواسطة مزارعي العصر الحجري الحديث في أثناء انتشارها إلى اوروبا.

بعض مراجع العصر الحجري الحديث

W. Albright, The Archaeology of Palestine, Middle sex, 1949.

V. G. Childe, New Light on the Most Ancient East, London, 1952.

V. G. Childe, Early Forms of Society, History of Technology, ed. C. J. Singer, I. Oxford, 1954, P. 38

J. D. Clark, The Prehistory of Southern Africa, London, 1959.

S. Cole, The Prehistory of East Africa, Middlesex, 1954.

C. S. Coon, Seven Caves, London, 1957.

H. Frankfort, The Birth of civilization in the Near Fast, London, 1951.

C. B. M. McBurney, The stone age of Northern Africa, Middlesex, 1960.

J. Mellaart, Roots in the Soil, Dawn of civilization, London, 1961.

A. Okladnikov, Le Néolithique en Sibérie, Journal of world History, VI, 3, Paris, 1961, P. 476.

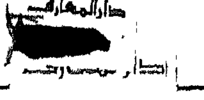
S. Piggott, Prehistoric India, Middle sex, 1950.

S. Piggott, Neolithic cultures of the British Isles, Cambridge, 1954.

F. E. Zeuner, Dating the Past, London, 1958.

فهرس الاشكال والصور

فهرس الكتاب



١٠١٤٩١

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة

الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)